سلسلة
صفحات روحية
٢٤

القراءة الربّانيّة

LECTIO DIVINA

روحانيّتها - أسلوبها - ممارستها

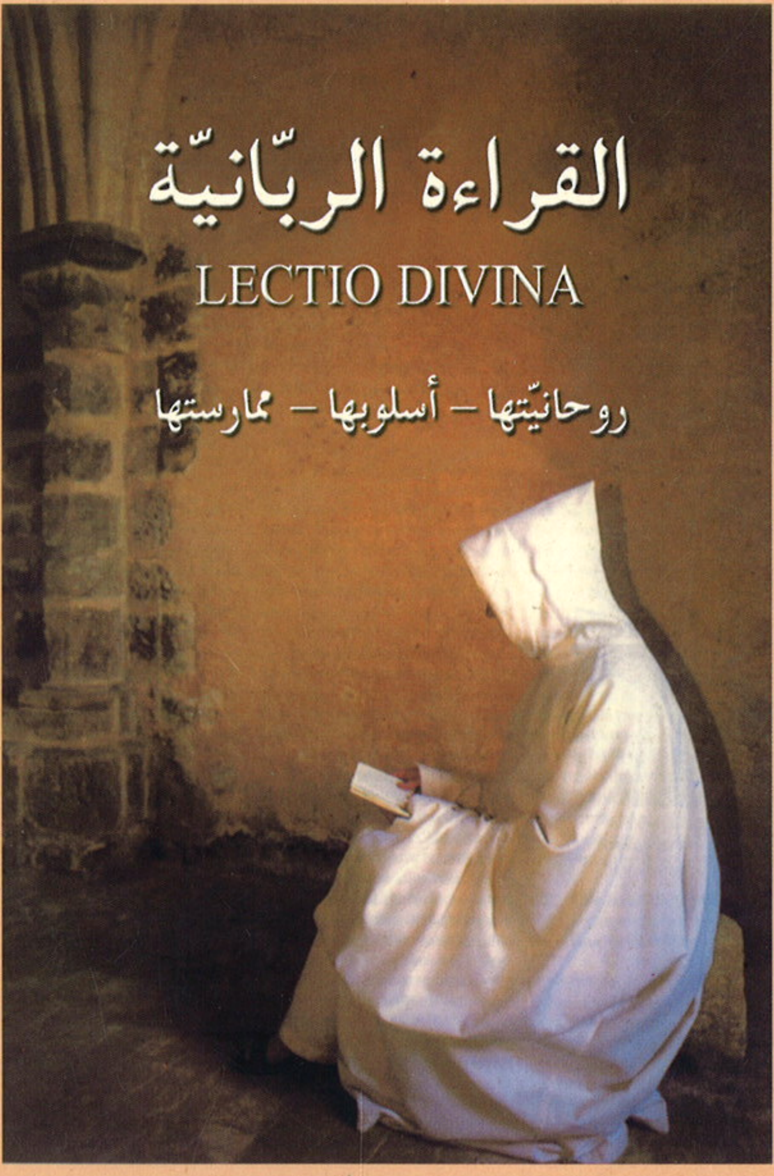

٢٠٠٥

القراءة الربّانيّة

LECTIO DIVINA

سلسلة
صفحات روحيّة
٢٤

القراءة الربّانيّة

LECTIO DIVINA

روحانيّتها - أسلوبها - ممارستها

٢٠٠٥

طبعة ثانية

٢٠٠٥

*

طبع هذا الكتاب بمساهمة مارون الحايك وعائلته فلهم الشكر.

*

منشورات المكتبة البولسيّة
جونيه - شارع القدّيس بولس - ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٠٩/٩٣٣٠٥٢ - فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت - شارع لبنان - هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ - تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحلة - الحمراء بلازا - تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧

عنوان هذا الكتاب باللغة الإيطاليّة هو

La Lectio Divina della comunita cristiana,
Ed. Queriniana 1999

ألّفه بالإيطاليّة GIORGIO ZEVINI

ترجمة المعهد الإكليريكيّ في بيت جالا

نشكر حضرة الأب الفاضل مارون اللحّام،
رئيس إكليريكيّة بيت جالا للبطريركيّة اللاتينيّة،
الذي سمح لنا بنشر هذا الكتاب لتتمّ فائدته في البلاد العربيّة.

فليُطبع
+ البطريرك ميشيل صبّاح
٢٠٠١/١٠/٧
عيد سيّدة الورديّة المقدّسة

مقدّمة

كان شابّ يبحث عن السلام وعن معنىً لحياته. زار يوماً ما راهباً متنسّكاً منقطعاً إلى الصلاة والتأمّل في كلمة الله. إرتاح الشابّ للقائه مع الناسك إلى حدّ أنّه طلب منه في نهاية الحديث أن يبقى عنده وأن يتتلمذ له. لم يكن الراهب قد سمح لأيّ إنسان أن يبقى معه قبلاً، ولكنّه سأل الشابّ عن سبب طلبه هذا. فأجاب الشابّ دون تردّد: «لأنّي أريد أن أتعلّم كيف أصلّي مع الكتاب المقدّس». فسأله الراهب: «ولماذا تريد أن تتعلّم كيف تصلّي مع الكتاب المقدّس»؟ أجاب الشابّ: «لأنّ ذلك أسمى عِلم في العالم». أجاب الراهب: «كان يُسعدني أن تبقى معي، لكنّي لا أستطيع ذلك». فعاد الشابّ إلى بيته.

وبعد بضع سنوات، عاد الشابّ لزيارة الراهب. وفي نهاية حديثه معه طلب منه مجدّداً أن يبقى معه ويتتلمذ له ليتعرّف على الكتاب المقدّس ويتعلّم الصلاة. فسأل الراهب الشابّ نفس السؤال: «لماذا تريد أن تتعلّم كيف تصلّي مع الكتاب المقدّس»؟ أجاب الشابّ: «لأنّي أريد أن أصبح قدّيسًا». أجاب الراهب: «كان يُسعدني أن تبقى معي، لكنّي لا أستطيع ذلك». فعاد الشابّ إلى بيته حزيناً مكسور الخاطر لأنّ الراهب لم يلبِّ طلبه.

ومرّت سنة أخرى، وكان بال الشابّ مشغولاً دوماً بالبحث عن السلام والراحة. فعاد إلى زيارة الراهب، فوجده يصلّي والكتاب المقدّس بين يديه. أمضى الاثنان النهار معاً في الصلاة. وفي المساء عاود الشابّ نفس

السؤال في أن يتعرّف على الكتاب المقدّس ويتعلّم الصلاة. سأله الراهب نفس السؤال: «ولماذا تريد أن تصلّي مع الكتاب المقدّس»؟ فأجاب الشابّ بصوت قويّ: «أريد أن أصلّي مع الكتاب المقدّس كي أختبر حياة الله». عندئذ أشعّت عينا الراهب فرحاً، فعانق الشابّ وأذن له بالبقاء معه والتتلمذ له.

تشير هذه القصّة – المأخوذة من تراث آباء الصحراء – إلى هدف الصلاة الربّانيّة. ليس الهدف من الصلاة الربّانيّة اكتساب علم جديد أو السعي وراء صورة ضبابيّة عن القداسة. الهدف هو الوصول من خلال التعامل مع كلمة الله إلى خبرة عميقة مع الله. والصلاة الربّانيّة متاحة لجميع أعضاء شعب الله: الفقير والغنيّ، المتعلّم والجاهل. وهي تُدخل المؤمن في طريق روحانيّة مسيحيّة أصيلة، تحمل على توطيد أواصر علاقة حميمة مع الله ومع القريب. ومن يصل إلى هذه الخبرة، خبرة تحويل قراءة كلمة إلى صلاة، يكتسب الحكمة الحقيقيّة ويسير في طريق القداسة.

أمور عامّة حول القراءة الربّانيّة

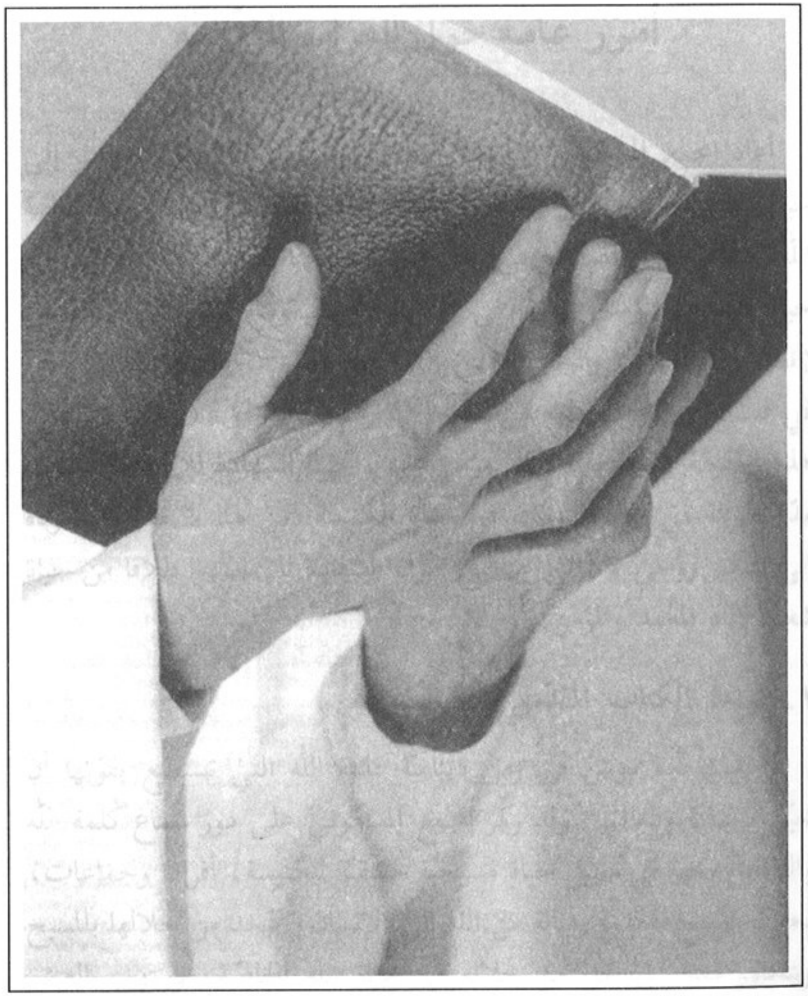

الفصل الأوّل

أمور عامّة حول القراءة الربّانيّة

أعاد المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني والتفكير اللاهوتيّ المعاصر إلى حياة الكنيسة ممارسة روحيّة قديمة، هي تفكير لاهوتيّ أصيل حول كلمة الله. تتأسّس هذه الممارسة في إيمان الكنيسة وحياتها منذ البدء، وتنمو في حياة الجماعة المؤمنة، وتؤثّر في عيشهم اليوميّ وتتأثّر بنور الروح القدس (أنظر نور الأمم ١٢، والوحي الإلهيّ ٨). نحن نعلم أنّ الروح القدس يحلّ في قلب كلّ مؤمن ويعلّمه من الداخل ليعرف «كلّ الحق» (يوحنّا ١٦، ١٣). هذه الحقيقة – حقيقة أنّ كلّ مؤمن عليه واجب الشهادة للإيمان – دخلت مدّة طويلة في عالم النسيان في حياة الكنيسة. من هنا لا بدّ من العودة إلى تفكير روحيّ لاهوتيّ صحيح حول الشهادة للإيمان، انطلاقاً من حياة شعب الله المعمّد والمؤمن.

١. قراءة الكتاب المقدّس في الكنيسة

لا شكّ أنّنا نعيش في زمن ديناميّة كلمة الله التي تستطيع بقوّتها أن تغيّر الإنسان والعالم. وقد ركّز المجمع المسكونيّ على دور سماع كلمة الله والتفاعل معها في سبيل حياة مسيحيّة حقيقيّة للكنيسة، أفراداً وجماعات، بحيث تصبح الكلمة رسالة من الله إلى الإنسان، يتّحد من خلالها بالمسيح ويتحاور معه، ويدخل من خلاله في حياة الله الخاصّة، وينتهي بالعيش من أجل الله لا من أجل نفسه فقط. إنّ العلاقة بين الكنيسة والكتاب

المقدّس من العمق بحيث إنّ الحقيقتين متداخلتان، وتؤثّر الواحدة في الأخرى. فلا تستطيع الواحدة أن توجد دون الأخرى. بدون كلمة الله لا تستطيع الكنيسة أن تنمو، ودون الكنيسة يبقى الكتاب المقدّس كلاماً جامداً. ويمكننا أن نطبّق على العلاقة بين الكنيسة والكتاب المقدّس ما قاله اللاهوتيّ هنري ده لوباك Henri de Lubac عن العلاقة بين الكنيسة والإفخارستيّا: «الكنيسة تصنع الإفخارستيّا والإفخارستيّا تصنع الكنيسة». فالكنيسة التي هي وحدة واحدة بعنصرَيها الإلهيّ والبشريّ (نور الأمم ٨)، هي الوسيلة التي اختارها الله ليحمل الخلاص إلى بني البشر. والكتاب المقدّس عنصر جوهريّ في تكوين الكنيسة وله مع الكنيسة علاقة حميمة على أكثر من صعيد.

* يولد الكتاب المقدّس في وسط جماعة مؤمنة

للكتاب المقدّس والكنيسة علاقة بكلمة الله. علاقة تُدخل الله في عالم البشر من جهة، وعلاقة قبول وتجاوب الإنسان من جهة أُخرى. فمن جهة، تفترض كلمة الله –كونها كلمة موجّهة من الله إلى الإنسان– سماعاً تقويّاً وطاعة وأمانة. ومن جهة أُخرى –كونها كلمة كتبها البشر عن الله– تتضمّن خبرة إيمان جماعيّ. وهكذا وُلدَ الكتاب المقدّس ثمرة خبرة روحيّة ونبويّة . فهي، قبل أن تكون كتاباً مدوّناً، حقيقةٌ بشّر بها الرسل وعاشتها الكنيسة الأولى، التي نمت وترعرعت بقوّة كلمة الله. الكتاب المقدّس هو إذاً تدوين خبرة إيمان شعب يسير في نور الله ويبحث عن معنى حياته ومعنى الأحداث والتاريخ الذي يعيشه. وما التاريخ إلاّ المجال الذي يكشف الله فيه عن سرّ شخصه الإلهيّ، والمسرح الذي وضعه الله أمام بني البشر ليروا من خلاله عمله الخلاصيّ الشامل.

ومن هذه الخبرة المعاشة وُلد الكتاب المقدّس كخبرة مكتوبة: انعكاس أمين لما عاشه شعب العهد القديم والكنيسة الأولى (العهد الجديد)، ومثال حيّ لما يجب أن تكون عليه كلّ جماعة مؤمنة . فعندما تعيش أيّة جماعة

مؤمنة في التاريخ، فإنّها ستلتقي يوماً ما بمن هو «سيّد التاريخ»، وتتّجه نحوه من خلال جواب إيمان حيّ. ليس الكتاب المقدّس إذاً ثمرة تفكير أشخاص جلسوا وفكّروا ثمّ دوّنوا. إنّه كلمة الله المتجسّدة أوّلاً في شعب العهد القديم، ثمّ في حياة يسوع المسيح والرسل. يقول اللاهوتيّ كارل راهنر K. Rahner: «الكتب المقدّسة ينابيع حياة في الكنيسة. هي وديعة الإيمان الذي تحتفظ به وتنقله كإيمانها هي، من خلال الرسائل والوعظ والإرشاد».

* الكتاب المقدّس موجّه إلى الجماعة المؤمنة

لم يكتب السيّد المسيح حرفاً واحداً. بشّر بالإنجيل، اجترح المعجزات، تمّم مشيئة أبيه بموته وقيامته، وترك جماعة الرسل وأوكل إليها كلمته (متّى ٢٦، ١٦ – ٢٠). ثمّ نظّم الرسل شؤون الجماعة المؤمنة الأولى، ووضعوا أُسساً في التاريخ لكنيسة المسيح التي بدأت تكتب ما كانت تؤمن وتحتفل به. وهكذا أصبحت الكتابات الإنجيليّة مرجعاً رسوليّاً لإيمان الكنيسة الأولى وحياتها. فالعهد الجديد، الذي هو تكميل لما جاء في العهد القديم، أصبح بعمل الروح القدس، مكوِّناً أساسيّاً في الكنيسة لجميع الأزمنة. والكنيسة الأولى، في تحديدها لكتب العهد الجديد، كانت واعية إلى مسؤوليّتها في تحديد ما سيقبله وما سيؤمن به المسيحيّون في المستقبل.

وخلال التاريخ، حاول المؤمنون دوماً أن يبنوا إيمانهم على إيمان كنيسة الرسل (رسالة يوحنّا الأولى ١، ١ – ٣)، وعلى الكتاب المقدّس، مع القناعة أنّ ما حصل في زمن الكنيسة الأولى يتجدّد في كلّ عصر وزمان. هكذا أصبح الرجوع إلى الكتاب المقدّس يعني الرجوع إلى إيمان كنيسة الرسل وقبول بشرى الخلاص في محبّة الله التي تجسّدت في يسوع المسيح. وكلّ ذلك ليس مجرّد تكرار جامد لما حصل في الماضي، بل استمرار ديناميّ وحيويّ لقوّة كلمة الله التي تخاطب الإنسان «الآن وهنا».

٢. طابع الكتاب المقدّس الملزم للكنيسة

أثبت الكتاب المقدّس نفسه كمركز للتفكير اللاهوتيّ الراعويّ في الكنيسة، خصوصاً أثناء المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني. وقد تمّ التعبير عن ذلك خصوصاً في الدستور العقائديّ عن الوحي الإلهيّ، الذي نختصره في النقاط الرئيسيّة التالية:

* الكتاب المقدّس كتاب إلهيّ وبشريّ

الكتاب المقدّس الذي هو هبة الله للكنيسة، يشكّل نقطة التقاء بين مؤلّفَين: الله والإنسان . والهدف الأهمّ لمفسّري الكتاب المقدّس هو محاولة الوقوف على ما أراد الله أن يكشفه لبني البشر، وما أراد الكاتب البشريّ أن يقوله عن الله (رقم ١٢). فبالنسبة للمجمع، الهدف من تفسير كلمة الله هو البحث عن محتوى كلمة الله ومعناها. وبما أنّ هذه الكلمة تحمل أيضاً الطابع البشريّ، يجب أيضاً البحث عن «المعنى الحرفيّ» وعن الإطار الاجتماعيّ الثقافيّ للكاتب البشريّ والأنواع الكتابيّة التي تشكّل «الغلاف» الخارجيّ لرسالة الخلاص (رقم ١٢ – ١٣). وهذا أمر يستطيع أن يساهم الجميع في دراسته، ويتمّ ذلك اليوم بوسائلٍ علميّة متقدّمة. بيد أنّ تحديد المعنى الإلزاميّ أمر يعود إلى الكنيسة، نظراً إلى طابعها الإلهيّ. فالله تعالى هو أصل الكتاب المقدّس. وهو الكاتب الرئيسيّ له، «فقد كُتبت أسفار الكتاب المقدّس بإلهام من الروح القدس» (رقم ١١)، وتُقرأ «بعون الروح القدس» (رقم ١٢). هذا هو أساس التفسير اللاهوتيّ للكتاب المقدّس: الجمع بين التفسير العلميّ وعقيدة الوحي. وهو أساس لما يُدعى «الفهم الروحيّ» للكتاب المقدّس.

يجب البحث عن الكاتب الإلهيّ داخل رسالة الكتاب المقدّس لا خارجها. فالروح القدس هو الذي ألهم كلّ صفحة في الكتاب المقدّس وهو الذي ينير مفسّريها. لذا يجب على مفسّر كلمة الله أن يضع نفسه في نور الروح القدس، إن هو أراد أن يسير في خطّ تقليد الكنيسة الحيّ.

لا يستطيع الإنسان أن يسبر غور كلمة الله، بل كلمة الله هي التي تسبر غور الإنسان وتكشف عن طاقاته المدفونة. من هنا يأتي المبدأ: «كي نقف على معنى كلمة الله بشكل دقيق؟ يجب الانتباه إلى المعنى العامّ الواحد للكتاب المقدّس، وإلى تقليد الكنيسة الحيّ وغير المنقطع وإلى خطّ الإيمان العامّ».

+ **المعنى العامّ الواحد للكتاب المقدّس.** وهو معنىً يظهر من انسياب أحداث تاريخ الخلاص في العهد القديم والجديد في خطّ واحد، ومن الوقوف على الأمور الأساسيّة في تفكير الله تعالى الذي هو الكاتب الرئيس للكتاب المقدّس. هذه الوحدة، حسب تفكير المجمع الفاتيكانيّ الثاني، هي الوحي وهي يسوع المسيح وهي مبدأ فهم العهدين، القديم والجديد. فما كلمة الله في النهاية سوى الكلمة المتجسّد الذي «فيه يتمّ كمال وحي الإله العظيم» (رقم ٧). تشكّل مختلف كتب العهدين، بغضّ النظر عن تاريخ كتابتها وتاريخ قبولها في جسم الوحي الكتابيّ ، وحدة واحدة. وما يوحّدها بالرغم من اختلاف تاريخ ومكان تدوينها هو الروح القدس الذي ألهم كتّابَها ليضمن لنا حقيقة خلاصٍ لا غبار عليها.

+ **الانتباه إلى تقليد الكنيسة الحيّ.** فمن خلال التقليد يتمّ نقل الكتاب المقدّس من جيل إلى جيل. ومن خلال التقليد تعمل الكنيسة على حمل ثمار الإيمان في حياة المؤمنين الذين يقبلون الخلاص الذي حمله يسوع المسيح (رقم ١٠، ١٢). الانتباه إلى تقليد الكنيسة الحيّ يعني أنّ تفسير الكتاب المقدّس يجب أن يتمّ «داخل الكنيسة» لأنّ الكتاب المقدّس وُلد في الكنيسة وهو جزء أساسيّ في تكوين الكنيسة. ومن ثمّ تبقى الكنيسة أمينة لمعنى كلمة الله بقوّة الروح القدس نفسه. يقول أوريجينوس إنّ الكنيسة تحمل في التقليد ذكرى كلمة الله وإنّ الروح القدس يلهم الكنيسة لتفسير كلمة الله تفسيراً سليماً.

+ **احترام خطّ الإيمان العامّ.** وهو الانسجام والتشابه العامّ في الوحي

سواء كان ذلك داخل الكتاب المقدّس أو قراءته في حياة الكنيسة. المطلوب إذاً هو الانتباه إلى وحدة المعنى في الوحي وفي إيمان الكنيسة. وهما حقيقتان تتداخلان وتدعم إحداهما الأخرى.

وبسبب هذه العلاقة الحميمة بين الكنيسة والكتاب المقدّس لا يمكن أن يحصل تفسير صحيح للكتاب المقدّس إلاّ في الكنيسة ومع الكنيسة.

* الكتاب المقدّس في حياة الكنيسة

موضوع آخر مهمّ ركّز عليه الدستور المجمعيّ عن الوحي الإلهيّ (الفصل ٦) هو مكانة الكتاب المقدّس في الكنيسة وفي حياة المؤمن. والهدف من هذا التركيز لا ينحصر في تزويد المؤمن ببعض التعليمات الراعويّة العمليّة بقدر ما هو التركيز على بُعد أساسيّ في حياة شعب الله المؤمن. يبدأ الفصل بالتركيز – مع الإفخارستيّا – على الأهمّيّة القصوى التي توليها الكنيسة للكتاب المقدّس: «أولت الكنيسة دوماً الكتاب المقدّس الاحترام الذي توليه جسد المسيح نفسه. ولم تكفّ أبداً عن التغذّي بكلمة الله وبخبز الحياة الحيّ كما لم تكفّ عن حمل المؤمنين إلى عمل ذلك» (رقم ٢١). فكلمة الله والإفخارستيّا هما المائدة الكبيرة التي تتغذّى منها الكنيسة باستمرار.

ثمّ يتمّ التركيز على القاعدة «الذهبيّة» للإيمان المسيحيّ: «اعتبرت الكنيسة دوماً، وما زالت، الكتاب المقدّس (مع التقليد) المرجع الأوّل والأعلى لإيمانها» (رقم ٢١). والكنيسة تخضع للكتاب المقدّس. والكتاب المقدّس هو القمّة التي ترنو إليها الكنيسة باستمرار. هنا نجد العلاقة الصحيحة بين كلمة الله والكنيسة بمختلف مكوّناتها (الرعاة وشارحو الكتاب المقدّس والمؤمنون). فكنز الوحي أعطي للكنيسة كلّها. والجماعة المسيحيّة بأسرها هي التي «تحفظ وتمارس وتعترف بالإيمان الذي وصلنا من الرسل» (رقم ١٠). هذا هو الجديد الذي حمله المجمع. فلم يعد البابا

والأساقفة الحملة الوحيدين لكنز الوحي، بل حامل الوحي هو شعب الله. لا شكّ أنّ السلطة الكنسيّة هي المخوّلة بتفسير الكتاب المقدّس تفسيراً صحيحاً، ولكنّها تمارس سلطانها باسم المسيح وخدمةً للكلمة، لأنّ «السلطة الكنسيّة التعليميّة لا تعلو على كلمة الله، بل تخدمها ولا تعلّم إلاّ ما تسلّمته من التعاليم. فإنّها بتكليف من الله، وبعون الروح القدس، تصغي بخشوع إلى هذه الكلمة، وترعاها باحترام، وتفسّرها بأمانة. ومن هذه الوديعة الواحدة لحقائق الإيمان، تستقي كلّ ما تعتبره موجباً للإيمان لأنّه من وحي الله» (رقم ١٠).

علاوة على ذلك، لا يمكن فهم الكتاب المقدّس فهماً كاملاً إلاّ بعون من الروح القدس، لأنّ صوت الروح القدس «يدوّي في الكتاب المقدّس» (رقم ٢١). وتعمل قوّة الروح القدس في قلب من يستسلم لها بفرح. من هنا يجب أن يلتقي مختلف العاملين في حقل الكتاب المقدّس ويتبادلوا الخبرات والآراء لكي يغتني كلّ واحد بخبرة الآخر الفريدة. فالكتاب المقدّس هو الوسيط الوحيد بين شعب الله المؤمن ووحي الله في ابنه يسوع المسيح. وهنا يمكن الاستشهاد بنصّ آخر عميق وغنيّ من المجمع: «من الواجب أن تأتي الكرازة الكنسيّة، على غرار الديانة المسيحيّة نفسها، مشبعة بالنصوص الكتابيّة... إنّ كلام الله هذا يحمل قوّة وعزماً عظيمين حتّى إنّه يصبح ركناً للكنيسة وعزّة، ولأبناء الكنيسة منعة إيمان، ولنفوس المؤمنين غذاء، ولحياتهم الروحيّة معيناً دائم الجريان» (رقم ٢١). قوّة الكلمة هذه المذكورة تعطى من خلال عمل الروح القدس الذي يدعو دوماً إلى التوبة وإلى القداسة في الكنيسة. وهكذا يتكوّن موقف الإنسان من الإيمان بالكتاب المقدّس الذي يسرد «تاريخ الخلاص» والرجاء بحياة جديدة، لأنّ الكنيسة «تسعى بلا انقطاع، وعلى مرّ العصور، إلى أن تبلغ الحقيقة الإلهيّة كاملة، إلى أن يحين لها الوقت، فتتحقّق فيها جميع أقوال الله» (رقم ٨). وكلّما اقترب ملء الأزمنة كلّما أصبح فهم الكتاب المقدّس سهلاً.

* أولويّة نقل كلمة الله

يمكننا القول الآن إنّ التجديد الكبير الذي أحدثه المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني هو التركيز على مركزيّة كلمة الله في الكنيسة. يقول دستور المجمع عن الوحي الإلهيّ: «يعمل المجمع المقدّس، كلّ مرّة يصغي إلى كلمة الله بورع ويعلنها إعلاناً ثابتاً، إلى كلمات القدّيس يوحنّا: «إنّنا نبشّركم بالحياة الأبديّة التي كانت لدى الآب وظهرت لنا. إنّ ما رأيناه وسمعناه به نبشّركم، لتكون لكم، أنتم أيضاً، شركة معنا، ولتكون شركتنا نحن أيضاً مع الآب ومع يسوع المسيح ابنه» (١ يوحنّا ١، ٣٢) (رقم١). نفهم من هنا أنّ على الكنيسة، قبل أن تبشّر بكلمة الله، أن تكون سامعة لها وعاملة بها. فلا يمكن الدخول في ملكوت الله قبل أن نولد من الله (يوحنّا ٣، ٣ و٥) ونولد من الله بقدر ما نسمح لكلمة الله أن تعلّمنا وتهذّبنا. كما ندخل في علاقة مع الله من خلال الصمت في حياتنا، ومن خلال التأمّل في عطاء الله ذاته لنا، هو الذي: «يخاطب البشر، من خلال حنانه، كما يخاطب الأحبّاء. إنّه يتحدّث إليهم ليطلب منهم أن يشاركوه في حياته» (رقم ٢).

لا شكّ أنّ هناك أيضاً موضوعاً آخر مهمّاً هو «نقل» كلمة الله الموحاة. فالله أوحى كلمته إلى البشر، لكنّ هذا الوحي كان سيبقى دون فائدة لو لم يتمّ نقله منذ البدء بوساطة الرسل الذين عايشوه، ثمّ بوساطة الكنيسة من خلال الخلافة الرسوليّة المتمثّلة في الأساقفة. يقول المجمع: «جاء هذا التقليد المقدّس والكتاب المقدّس في كلا العهدين وكأنّهما مرآة يتاح فيها لجماعة المؤمنين أن يتأمّلوا مسيرتهم على الأرض، إلى أن يحين الوقت، ويصلوا إلى رؤيته كما هو: وجهاً لوجه (يوحنّا ٣، ٢)» (رقم ٧). الهدف من الكرازة الرسوليّة الموجودة في الكتاب المقدّس هو تغذية شعب الله وتقديسه. والكنيسة، بكلّ فعّاليّاتها، تنمو داخليّاً من خلال استيعابها وعيشها للوحي الإلهيّ. «إنّ هذا التقليد الآتي من الرسل، ينمو ويتطوّر في الكنيسة بمعونة الروح القدس، لأنّ جماعة المؤمنين تزداد فهماً لما

تسلّمته من أحداث وأقوال: إمّا بالإمعان في تفحّصها ودرسها، كلّما تأمّلوا فيها في قلوبهم (لو ٢، ١٩ و٥١)، وإمّا بإدراك داخليّ عميق للأمور الروحيّة، وإمّا باستخلاص أنوار روحيّة جديدة بشأنها، من كرازة أولئك الذين حصلوا، مع الولاية الروحيّة، على هبة لدُنيّة خاصّة في قول الحقّ» (رقم ٨). فشعب الله يتمتّع بقوّة «نبويّة» في العيش بحسب متطلّبات كلمة الله. فعندما تعلن الكنيسة كلمة الله في الليتورجيّا، تنمو بصفتها سرّ وحدة وشعب مقدّس. هنا تمارس الكنيسة رسالتها في نشر كلمة الله. وهنا يتّحد عمل الكنيسة والمؤمنين، والمتمثّل في درس كلمة الله وخبرة شعب الله الروحيّة والوعظ. وهكذا تشكّل الصلاة الربّانيّة المكان الذي فيه تلتقي مختلف المواهب في الكنيسة وتنمو وتختبر علاقة الحياة مع الربّ.

٣. العلاقة بين الكتاب المقدّس والصلاة

قلنا إنّ أصل الكتاب المقدّس الإلهيّ متأتٍّ من كون الله هو الذي ألهم كتابته. وقلنا إنّ الكتاب المقدّس وُلِدَ في حضن جماعة اختبرت حياة إيمان نما ونضج ووصل قمّته في سرّ المسيح الفصحيّ (الموت والقيامة). ومن يريد أن يختبر معنى الكتاب المقدّس العميق، يتوجّب عليه قبل كلّ شيء أن يحدّد ما يريد عندما يتعامل مع الكتاب المقدّس. والكتاب المقدّس ليس فقط مرجعاً أو كتاب مقارنة، بل هو قبل ذلك كتاب إيمان، مكان الالتقاء بشخص يسوع المسيح. فنحن نقرأ الكتاب المقدّس كي نصبح مؤمنين بشكل أفضل، وكي نجد في كلمة الله معنًى جديداً لكلماتنا البشريّة: «إلى من نذهب يا ربّ وكلام الحياة الأبديّة عندك» (يوحنّا ٦، ٦٨). قبول الكتاب المقدّس يعني انفتاح الإنسان الحرّ على عالم الله. ومن يريد أن يبقى سطحيّاً في تعامله مع الكتاب المقدّس لا يجد فيه سوى مجموعة قصص. لذا، فقراءة الكتاب المقدّس الحقيقيّة تعني جدّيّة بشريّة منفتحة على الإيمان. وهذا يعني قبول العلاقة الموجودة بين الكتاب المقدّس والكنيسة، وبين الكتاب المقدّس والإيمان، وبين الكتاب المقدّس والصلاة. ما هو المكان الذي تحتلّه قراءة الكتاب المقدّس في الصلاة الفرديّة

والجماعيّة؟ ما هي العلاقة بين الكتاب المقدّس وروحانيّتنا؟ أحد الأجوبة على هذه التساؤلات نجده في القراءة الربّانيّة، التي فيها نجد التكامل المنشود بين كلمة الله المعلنة في ليتورجيّة الكنيسة وخبرة سماع كلمة الله والتحاور معها في الصلاة الفرديّة والجماعيّة.

* الكتاب المقدّس هو كتاب صلاة

للكتاب المقدّس علاقة عميقة مع العناصر الثلاثة الأساسيّة في حياة الإنسان: الكلمة والصلاة والحياة. وهي عناصر متشابكة. فالصلاة ليست عملاً خارجيّاً عند الإنسان، لأنّها تنبع من داخله، وتحييه وتجعله واعياً لعلاقته الجوهريّة بالله. الصلاة لقاء واتّصال وحوار يأخذ فيه لقاء الله شكل كلمة تنير الحياة. لهذا يجب أن تتغذّى الصلاة بكلمة الإيمان، كما يجب أن تنطلق من قراءة نصٍّ من الكتاب المقدّس الذي يحتاج دوماً إلى أن يتجسّد في الحياة. يجب أن تدخل كلمة الله إلى عمق حياة الإنسان وتتفاعل معه بحيث تكوّن حركة مستمرّة بين كلمة الله وحياة الإنسان . وهذا يفترض بالضرورة استعداداً داخليّاً عند الشخص الذي يتعامل مع كلمة الله حتّى يدع الكلمة تعمل فيه وتكشف له معناها الحقيقيّ.

ولنا في كلّ ذلك مثال في حياة يسوع المسيح، حيث نرى العلاقة بين كلمة الله والصلاة والحياة. فكلمة الله هي الزرع الذي يحتاج أرضاً مهيّأة لاستقباله كي يثمر. وحياة يسوع المسيح كانت كلّها متمحورة حول كلمة الله، وموجّهة نحو طاعة تامّة لله، طاعة تنيرها روح صلاة عميقة وحوار متواصل مع الآب. جعل المسيح من الكتاب المقدّس مرجعاً ثابتاً لحياته. ويعتبر تصرّفه هذا مثالاً لمن يتبعه. فالحياة تؤسّس على الكتاب المقدّس، والصلاة يجب أن تمتلىء من الكتاب المقدّس ، والوعظ يجب أن يعتمد على نصوص الكتاب المقدّس. وهذا أمر يتطلّب عملاً وجهداً، فهو يشبه إلى حدّ بعيد عمليّة حرث الأرض. فكلّما تقلّبت الأرض كلّما أعطت ثماراً. وهكذا يمكن أن تحصل بين المؤمن وكلمة الله علاقة تبادل سرّيّ

وحميم. فلكي أتعرّف على داخل الإنسان، لا يمكن أن أكتفي بعلاقة سريعة وعابرة، بل أحتاج إلى علاقة عميقة ومطوّلة كي أستشفّ سرّه الداخليّ. ونفس الأمر ينطبق على كلمة الله. فالعلاقة بين الإنسان وكلمة الله، علاقة الثقة والمحبّة المثابرة، تجعل من كلمة الله خبرة حياة. وقبول كلمة الله كتاريخ لحياة الإنسان يعني الانفتاح على مشيئة الله وقبول تدخّل الله في حياتنا، وبالتالي العمل على أن تصبح حياتنا صلاة في ضوء كلمة الله. فالصلاة أمر ضروريّ للحصول على الخلاص، والصلاة هي التي تحمل إلى حياتنا نور الوحي وتسير بنا إلى الله.

* العلاقة بين الكتاب المقدّس والوحي في «الدستور عن الوحي الإلهيّ»

الصلاة عنصر أساسيّ في رسالة الكتاب المقدّس. يعتقد الكثيرون أنّ هدف الصلاة هو تسيير الله في خطّ تفكيرنا نحن، أو الحصول على ما نريد كي نُشبع رغباتنا الخاصّة. بينما الواقع هو عكس ذلك. الصلاة هي الدخول في عالم الله، هي الانطلاق من محبّته. هي التأمّل في وجهه الرحيم الذي ينظر إلى أبنائه بعطف. هي الالتقاء بشخص حيّ وقبول محبّته لنا. والصلاة أمر صعب على الجميع لأنّها مسيرة لا تنتهي أبداً، وطريق نبقى فيه دوماً تلاميذ يتعلّمون. ونفس الكلام ينطبق على كلمة الله عندما تصبح صلاة. فقراءة حقيقيّة لكلمة الله لا يمكن إلاّ أن تتضمّن صلاة. والمقصود بذلك ليس تلاوة صلاة أو عمل صلاة، بل موقف صلاة. فهي طريقة للوقوف في حضرة الله الذي يكلّمنا ونحن نقرأ النصّ المقدّس. من هنا تنبع مواقف إيمان وجهوزيّة وتواضع وبساطة تجاه كلمة الله.

ويقدّم النصّ المجمعي «في الوحي الإلهيّ» تعليماً جديداً حول هذا الأمر. يدعو النصّ المجمعيّ قبل كلّ شيء إلى قراءة الكتاب المقدّس: «إنّ كلّ رجال الإكليروس ملتزمون بأن يُكبّوا على قراءة الكتب المقدّسة قراءة روحيّة متواترة، وعلى دراستها دراسة عميقة. ويأتي في طليعة الإكليروس

كهنةُ المسيح. ويتبعهم كلّ من اضطلع، بداعي رسالته، بمسؤوليّة التبشير، من شمامسة إنجيليّين ومن مدرّسين نظاميّين للتعليم المسيحيّ. إنّهم جميعاً ملتزمون بذلك لئلاّ تتحوّل كرازتهم بكلام الله في الخارج إلى عبث، لأنّهم لم يعرفوا أن يصغوا إليه في ذواتهم» (٢٥). وبعد أن يوضّح النصّ المجمعيّ واجب قراءة الكتب المقدّسة، ينتقل إلى الكلام عن العلاقة بين هذه القراءة والصلاة فيقول: «يحرّض المجمع تحريضاً ملحّاً جميع المسيحيّين، لا سيّما من كان منهم عضواً في الجمعيّات الرهبانيّة، أن يدركوا «معرفة المسيح السامية» (فيلبّي ٣، ٨) بالمواظبة على قراءة الكتب الإلهيّة، لأنّ من جهل الكتب المقدّسة جهل المسيح... وليفطنوا أن يقرنوا الصلاة بقراءة الكتب المقدّسة، لأنّ بهما ينشأ الحوار بين الله والإنسان. فنحن نتحدّث إلى الله عندما نصلّي، ولكنّنا نستمع إليه عندما نقرأ آيات الوحي الإلهيّ» (٢٥). هنالك إذاً علاقة وثيقة جدّاً بين كلمة الله والصلاة. لا يتكلّم المجمع فقط عن قراءة يوميّة للكتب المقدّسة، بل عن علاقة هذه القراءة بالصلاة كي نصل إلى إقامة حوار مع الله، حوار يقود المؤمن إلى اختبار حياة الله نفسها.

يقول الكاردينال مارتيني في تعليقه على هذا النصّ: «لم يسبق أن تكلّمت المجامع السابقة هكذا. لكنّ الكنيسة رأت أنّ المؤمنين وصلوا درجة كافية في النضوج الروحيّ، فحثّتهم على قراءة كلمة الله والتأمّل فيها، كي يصلوا إلى إيمان ثابت وشخصيّ وعميق. فالإيمان الذي سيثبّت هو الإيمان المبنيّ على قناعات عميقة والذي لا يكتفي ببعض التعابير الشعبيّة الخارجيّة. والقراءة الربّانيّة هي الطريق الذي يقود إلى مثل هذه القناعات». المهمّ إذاً هو أن تتحوّل القراءة إلى صلاة . عندئذٍ تتحوّل الصلاة إلى حضور فاعل ليسوع المسيح، وحضور للآخر الذي يخاطبني المسيح من خلاله. في الصلاة، يصبح كلّ صوت بشريّ صوت المسيح، ويصبح كلّ وجه بشريّ وجه المسيح.

٤. تطبيق المعنى الروحيّ للكتاب المقدّس

يجب قبل الكلام عن «القراءة الربّانيّة»، أن نتكلّم، ولو باختصار، عن موضوع تفسير الكتاب المقدّس. وللدخول في هذا الموضوع، نستشهد بالنصّ المجمعيّ الذي يقول: «إنّ جلّ ما تجتهد فيه الكنيسة، عروس الكلمة المتجسّد، هو أن تكتسب، يوماً بعد يوم، إدراكاً أعمق للأسفار المقدّسة، بإرشاد الروح القدس، لكي تستطيع أن تغذّي أبناءها بلا انقطاع عن كلام الله» (٢٣). من هنا لا بدّ من طرح السؤال: «ما هي الطرق الناجعة لتفسير الكتاب المقدّس وتطبيق معناه، للوصول إلى الهدف الذي وضعته الكنيسة في النصّ المجمعيّ المذكور؟ نحن مقتنعون أنّ أفضل تعامل مع الكتاب المقدّس هو التعامل المبنيّ على الفهم الروحيّ للنصوص المقدّسة. وهذا الأسلوب يتطلّب جهداً علميّاً دون شكّ ، لكنّه يتضمّن أيضاً مقارنة حيّة وواقعيّة بين الكتاب المقدّس وحياة المؤمن وحياة الكنيسة. نحن هنا في قلب التفسير الروحيّ للكتاب المقدّس الذي قام به الآباء، بحيث انطلقوا من «النصّ الحرفيّ» للكتاب المقدّس للوصول إلى سرّ يسوع المسيح، في نور الروح القدس.

* التفسير الروحيّ للكتاب المقدّس

الكلام عن التفسير الروحيّ للكتاب المقدّس لا يعني الكلام عن تفسير من تفسيرات الكتاب المقدّس الممكنة، بل يعني الكلام عن عمل الروح القدس في تجسّد الكلمة، تجسّد تحقّق في ابن الله أوّلاً ثمّ في الكنيسة وفي حياة كلّ مؤمن. فكلمة الله هي التي تشير إلى وجود سرّ الخلاص وعمله، كما يقول اللاهوتيّ بوييه Bouyer: إنّ التفسير الروحيّ للكتاب المقدّس، بمعناه الصحيح، هو ما تفهمه الكنيسة من الكتب المقدّسة وما تحاول أن تعيشه لاسيّما في الليتورجيا. وتفسير الكتب المقدّسة الروحيّ هو الذي يرشدنا إلى طريقة عيشها بحسب الروح القدس الذي ألهمها». لذا ليس التفسير الروحيّ مجرّد تفسير ضمن تفسيرات أخرى، بل هو

التفسير الوحيد الذي يسمح بالمحافظة على حيويّة كلمة الله وعيشها في الجماعة المسيحيّة بطريقة تسمح لها بالرجوع إلى الله وإلى عيش خبرة متميّزة معه. لذا القراءة الروحيّة للكتاب المقدّس هي قراءة «مع المسيح وفي الروح القدس» (روما ٤، ١)، وفي ذلك المعنى النهائيّ والكامل للكتاب المقدّس.

فبالرغم من كلّ ما تتضمّنه الكتب المقدّسة، يبقى الشخصان الرئيسيّان الفاعلان فيه هما يسوع المسيح والروح القدس. وبنور هذا الأخير فقط يتسنّى لنا الولوج في عمق كلمة الله والوصول إلى المعنى الذي يتضمّنه الحرف. لذا يمكننا الكلام عن فهم «ذاتيّ» للكلام المقدّس، علاوة على فهمه «الموضوعيّ». فشارح الكتاب المقدّس في المعنى الروحيّ ما هو إلاّ روح المسيح. هو الذي يحييه في الوقت التاريخيّ الذي فيه تمّ الخلاص أو في الزمن الذي فيه تمّ تدوين أحداث الخلاص، أو في الزمن الذي فيه تقرأ الكنيسة الكتاب المقدّس وتحاول سبر غوره. يقول المجمع المسكونيّ في هذا الصدد: «الكتاب المقدّس لا يُقرأ ولا يُفسّر إلاّ في نور ذاك الروح الذي في نوره تمّت كتابته» (الوحي الإلهيّ ١٢). هذا هو أساس قراءة الكتاب المقدّس «في الروح»، وهي قراءة تتضمّن علاقة بين النصّ الذي أوحاه الروح القدس، والكاتب المقدّس والقارىء المؤمن. وهكذا يمكن لكلمة الله أن توصل رسالة الله للإنسان.

عندما نريد تعميق نصّ من الكتاب المقدّس، يجب دوماً توضيح «روح» النصّ، وتوضيح العلاقة التي تجمع بين المعنى الحرفيّ وامتداده الروحيّ. لذا، فالبحث عن المعنى الروحيّ للنصّ المقدّس ليس تخطّي المعنى الحرفيّ – وهذا أمر يجب التشديد عليه – بل هو تعميق له وتوضيح وفهم. المعنى الروحيّ للكتاب المقدّس هو المعنى الحقيقيّ، كون الكتاب المقدّس كتاباً إلهيّاً، وليس مجرّد نصوص وضعها الكاتب المقدّس. فالنصّ موجود، وهو يتكوّن من حروف وكلمات، لكنّها حروف وكلمات تتضمّن

غنىً داخليّاً. فمن الداخل إذاً تتوجّه كلمة الله إلى البشر وتحثّهم على الإيمان والارتداد والقداسة.

المعنى الروحيّ هو ما يقوم به المسيحيّ المؤمن ضمن الجماعة المسيحيّة كي يعيش متطلّبات حياته المسيحيّة، وهو دعوة إلى الالتقاء بيسوع المسيح في الكتاب المقدّس (يوحنّا ٥، ٣٩). لذا قال القدّيس توما الأكوينيّ: «يرسم قلبُ يسوع الكتاب المقدّس، والكتاب المقدّس يكشف عن قلب يسوع. لقد كان هذا القلب مغلقاً قبل الآلام، لأنّ النصّ الكتابيّ كان مغلقاً عن الفهم. لكن بعد موت يسوع المسيح وقيامته، انكشف سرّ الكتاب المقدّس بحيثُ أصبح المؤمنون يعلمون كيف يجب تفسير النبوآت». وهكذا تصبح النصوص المقدّسة، بعد أن اغتنت بخبرة شعب العهد القديم وبخبرة الكنيسة الأولى وخبرة التقليد المسيحيّ، أكثر عمقاً وغنىً، وتسمح لنا بفهم ما كان يقصده الكتّاب الأوّلون عندما كانوا يتكلّمون عن «العمق المدهش» للكتاب المقدّس.

* المعنى المتعدّد لكلمة الله

نستطيع القول، اعتماداً على ما سبق، إنّ التفسير الروحيّ للكتاب المقدّس هو التفسير التاريخيّ الوحيد المتكامل، لأنّه يسمح، بروح الإيمان، بتطبيق تاريخ الخلاص علينا اليوم. لكن يجب الانتباه إلى عدم الوقوع في تجربة التفسير ذي «الخطّ الواحد» للنصوص المقدّسة. نحتاج اليوم في قراءتنا للكتاب المقدّس، ونظراً لمتطلّبات الإنسان المؤمن والجماعة المؤمنة، إلى قراءات متكاملة تساعد في فهم أدقّ لسرّ المسيح الذي ظهر في خبرة شعب العهد القديم وفي سرّ الكنيسة وفي حياة كلّ مؤمن، والذي سيتحقّق بشكل كامل في حياة الملكوت.

كان الآباء منذ القدم قد تنبّهوا إلى ضرورة وجود أكثر من تفسير للنصوص المقدّسة. فهم يتكلّمون عن «المعاني الأربعة» التي تتّحد فيها

المعاني الكتابيّة واللاهوتيّة والروحيّة والتطبيقيّة في حياة الإنسان المؤمن. لذا نقول إنّ الفكرة الرئيسيّة السائدة في التقليد المسيحيّ هي أنّ تاريخ الخلاص الذي يقول الكتاب المقدّس إنّ رأسه هو يسوع المسيح، يتحقّق في الكنيسة (المعنى المجازيّ) ومن ثمّ في نفس الإنسان المؤمن، خصوصاً من خلال السنة الطقسيّة حيث تُعرض علينا مختلف مراحل تاريخ الخلاص (المعنى اللاهوتيّ والأخلاقيّ)، وأخيراً في الحياة الأبديّة (المعنى التشبيهيّ). هناك نصّ قديم للراهب الدومينيكانيّ أغوسطينو دي داشيا Agostino di Dacia يقول: «الحرف يعلّم الأحداث، والتشبيه يقول ما يجب أن نؤمن به، والمعنى الأدبيّ يدلّ على ما يجب عمله والأمل يحدّد الاتّجاه للمستقبل». يقول الأب كالاتي Calati إنّ هذه النظريّة هي أساس التفسير حسب ما جاء في التقليد: «تنمو محبّة الإنسان المؤمن أوّلاً بمقدار التعمّق في كلمة الله بقوّة الروح نفسه الذي يحيي كلمة الله ويوجّه المؤمن في بحثه عن الإله الحيّ».

لم يكن الكتّاب القدماء يعرفون سوى المعنى الروحيّ للكتاب المقدّس. لذلك نراهم يصفون كلام الله على أنّه السلّم الذي يقود إلى السماء، وما المعاني المختلفة للكتاب المقدّس سوى درجات هذا السلّم. نعتقد أنّ هذا التشبيه يعطي جواباً شافياً على التساؤل المطروح اليوم حول كيفيّة تفسير الكتاب المقدّس.

لا شكّ أنّ غنى كلمة الله يفترض أكثر من تفسير لها. فإعلان الكلمة يفترض الكرازة والليتورجيّا والتأمّل والصلاة. يمكن الاستفادة من غنى النصوص المقدّسة من خلال مسيرة روحيّة مسيحيّة متكاملة، مبنيّة على كلمة الله بمختلف معانيها وأبعادها، وهي أبعاد ومعانٍ تحتاج إلى أن توضع في بوتقة واحدة متماسكة. هذا ما يقوله اللاهوتيّ هانس أورس فون بلتزار Balthasar: نحن نعود إلى الواحد (الله) لا عن تنازل في الفكر بل للوصول إلى الأصل. فنحن مشتّتون على شواطىء العقلانيّة، ونعود

للبحث عن صخرة السرّ». المهمّ هو توحيد الحياة حول كلمة الله. والطريق مفتوحة أمام تصوّر روحيّ وراعويّ متمركز على الإيمان، والقراءة الربّانيّة التي نحن بصدد الكلام عنها تشكّل أرضيّة عمليّة لتحقيق ذلك.

إنّ ممارسة القراءة الربّانيّة هي الحلّ للوصول إلى قراءة «دائريّة» لكلمة الله، بحيث تشمل جميع أبعاد الكلمة وتقدّم تعليماً روحيّاً متماسكاً يساعد الأفراد والجماعات المؤمنة على التأمّل المستمرّ في سرّ يسوع المسيح في الكنيسة.

هل سيتسنّى للحياة المسيحيّة اليوم أن تعود إلى حيويّة واندفاع الكنيسة الأولى، حين كانت ممارسة القراءة الربّانيّة تميّز حياة الصلاة وحياة المحبّة في جماعة المؤمنين؟ يقول الكادينال دي لوباك De Lubac إنّ ما ينقصنا، نحن مسيحيّي القرن العشرين (والحادي والعشرين) هي الظروف التي تسمح بانتشار القراءة الربّانيّة بنور الروح القدس، أي القراءة الربّانيّة كما كان الآباء يمارسونها. «ينقصنا الإيمان المندفع، والشعور بالملء وبالوحدة التي كان الآباء يشعرون بها». ثمّ يختم: «إن أردنا العودة إلى ممارسة المعنى الروحيّ للكتاب المقدّس (= القراءة الربّانيّة)، يجب مواجهة الأمور بعمق وبحرّيّة أكبر. يجب العودة باستمرار إلى صراع يعقوب مع ملاك الرب». وبالنسبة للكنيسة، هذا الزمن هو زمن غيرة روحيّة متجدّدة بحسب توجيهات المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني، وحسب توجيهات تعليم الكنيسة الرسميّ.

الأبعاد الروحيّة للقراءة الربّانيّة

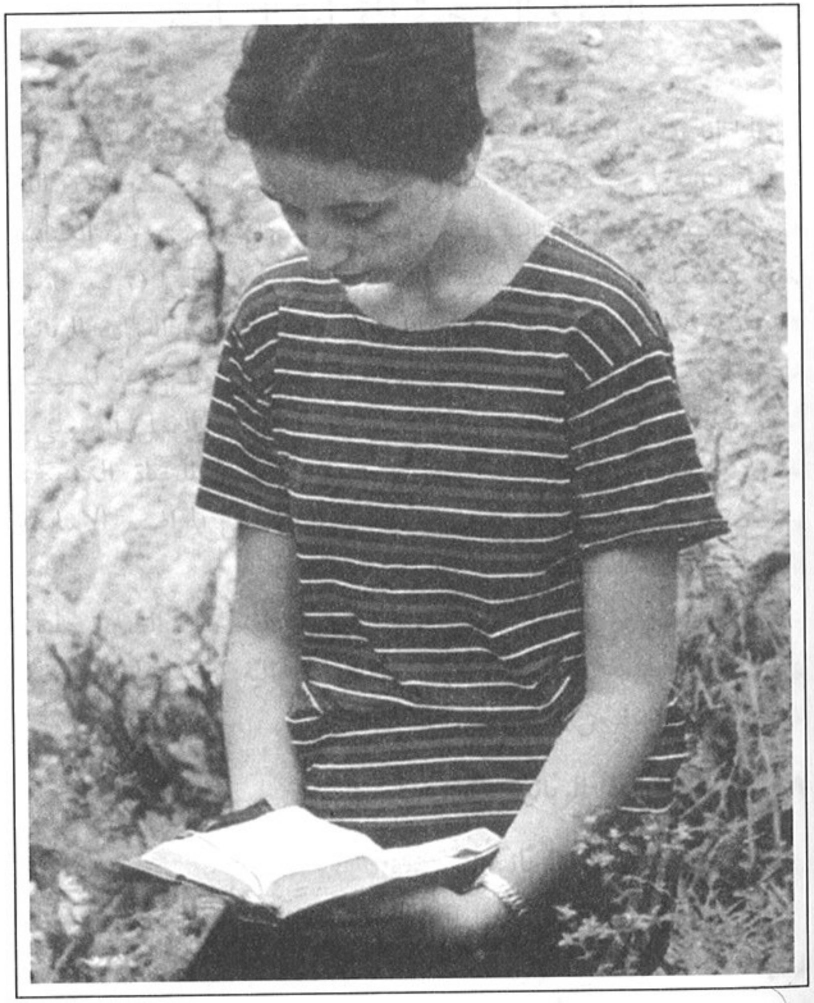

الفصل الثاني

الأبعاد الروحيّة للقراءة الربّانيّة

قلنا إنّه، بعد المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثانيّ، عادت الحياة الروحيّة تستقي ينابيعها من كلمة الله بشكل مكثّف ومنهجيّ، ليس فقط لأنّ الله هو الكاتب الحقيقيّ للكتاب المقدّس، بل، وبشكل خاصّ، لأنّ الكتاب المقدّس «يُفيد في التعليم والتفنيد والتقويم والتأديب في البرّ» (٢ تيموطاوس ٣: ١٦ - ١٧). لقد أصبح اختبار الله من خلال أسلوب القراءة الربّانيّة اليوم طريقة مميّزة في الحياة الروحيّة للإنسان المسيحيّ وللجماعة المسيحيّة ككلّ، حتّى إنّه في العديد من الجماعات الرهبانيّة والعمل الرسوليّ، تُطرح طريقة القراءة الربّانيّة كمشروع شامل وراعويّ للحياة الكنسيّة، برنامج تنشئة قادر على الحثّ على التفكير والتأمّل في المواضيع الأساسيّة المكوِّنة للجماعة المسيحيّة.

قبل الخوض في مشكلة الأسلوب والمراحل المختلفة لخبرة الصلاة هذه، نتوقّف عند طبيعة القراءة الربّانيّة ونماذجها الحاليّة ومستلزماتها وبعض المبادىء المستوحاة من ممارسة القراءة الربّانيّة.

١. طبيعة القراءة الربّانيّة ونماذجها

* ماهيّة القراءة الربّانيّة

يُجمع المؤلّفون الذين درسوا الموضوع، أنّ القراءة الربّانيّة ليست قراءة فرديّة للكتاب المقدّس، وليست دراسته بطريقة علميّة أو ثقافيّة. كما أنّها ليست تأمّلاً بالمعنى المألوف لمفهوم التأمّل. القراءة الربّانيّة لحظة صلاة

حقيقيّة ومواجهة مع واقع حياتنا. فهي نشاط معقّد ومتسلسل يقوم على مراحل متتابعة للدخول في سرّ الله، واضعين أنفسنا في موضع الإصغاء والحوار مع كلمة الله. أمّا صفة «الربّانيّة» فتصف هذه «القراءة»، وهي قراءة تحدّثنا عن الله، ويدخل الإنسان بواسطتها في حوار شخصيّ مع الربّ. تصف اللجنة الكتابيّة البابويّة القراءة الربّانيّة بهذه الكلمات: «**القراءة الربّانيّة هي قراءة، فرديّة كانت أم جماعيّة، لمقطع طويل أو قصير من الكتاب المقدّس، على أنها كلمة الله تتطوّر بدافع من الروح في التأمّل والصلاة والتفكير... أمّا غاية هذه القراءة فهي بعث وتغذية المحبّة الفاعلة والمستمرّة للكتاب المقدّس، ومنبع حياة داخليّة وخصب رسوليّ، وتعزيز فهم أفضل لليتورجيا وتأمين مكانة خاصّة وهامّة للكتاب المقدّس في الدراسات اللاهوتيّة وفي الصلاة**».

تُستعمل عادة عدّة تعابير أكثر شيوعاً: «القراءة الربّانيّة»، «القراءة الصلاة»، «الصلاة التأمّليّة»، «صلاة الكلمة»، «التأمّل في الصلاة لكلمة الله»، «قراءة صفحة من الكتاب المقدّس هدفها أن تصبح صلاة ونوراً للحياة». يَعتبر بعض الكتّاب أنّ هدف هذه القراءة هو تحقيق الحوار مع الله، فيها يتكلّم الله من خلال الكتاب المقدّس ويُجيب الإنسان من خلال الكلمة، الصلاة. ويذكرنا القدّيس أمبروسيوس: «أننا عندما نصلّي، نتكلّم مع الله، ونصغي إليه عندما نقرأ عظائمه الإلهيّة». ومن أجل تجنّب الكلام المختصر الذي يُفقد المعنى، يعرِّف مازيني Masini القراءة الربّانيّة بطريقة مفصّلة ويقول: «القراءة الربّانيّة تشمل مختلف الكلمات العقليّة بطريقة متدرّجة، بها ندخل في أُلفة مع الله، لكن علينا الحذر من النيران الواهية «للفضوليّة» الثقافيّة، وأن لا تخدعنا رمال «التفكير العقليّ» المتحرّكة. القراءة الربّانيّة هي «بحث»، لكنّه البحث عن ما هي «الحقيقة». هي «دراسة»، لكنّ ملهم هذه الدراسة وموضوعها هو الله. عندما ننظر إلى القراءة الربّانيّة بهذه الطريقة، نرى كيف أنّ هذه القراءة هي في الواقع عمل تصوّفيّ أكثر منه تقنيّة؛ فهي بحث في حقيقة شخص بواسطة الدخول في علاقة معه، منها صلاة ذات طابع ذهنيّ. لذا وجب أن تكون

الغاية من القراءة الربّانيّة «قراءة الله» أكثر منها «قراءةً عن الله»، قراءة يقودها انتظار التعرّف على الله ذاته أكثر منها معرفةَ أمور تخصّ الله. ولكي ننجح في ذلك، وجب علينا الدخول في صمت كلمة الله، أن يكون فينا قلبٌ متقدٌ لتفهّم الشروحات التي يوحيها الله إلينا الكلمة ذاته كما فعل يوماً مع تلميذَي عمواس. من ميّزات هذه القراءة أن نحفظ أنفسنا في نور الله، وغايتها الدخول في علاقة صحيحة معه. كما أنّ الأب لويس بوييه Bouyer قد حاول هو أيضاً وصف ماهيّة القراءة الربّانيّة بقوله **إنّها قراءة شخصيّة للكتاب المقدّس، قراءة تتمّ في الإيمان وروح الصلاة، مؤمنين بحضور الله الآن، وأنّه يكلّمنا في النصّ المقدّس، حيث يسعى المؤمن للإجابة على كلمة الله بروح الطاعة والثقة المطلقة بوعود الله وبما يطلبه منّا.**

ممّا قيل عن القراءة الربّانيّة نرى أنّها ليست أيّة قراءة للكتاب المقدّس، لكنّها قراءة تقودنا إلى الصلاة وإلى ممارسة لجوهر الله في حياتنا، فنبني علاقة شخصيّة أصيلة مع الله الذي يحدّثنا من خلال الكتاب المقدّس. ويحلو لنا أن نعرف القراءة الربّانيّة بطريقة بسيطة: **القراءة الربّانيّة هي قراءة صفحة من الكتاب المقدّس، تتمّ بنور الروح القدس لتتحوّل الكلمة إلى صلاة وتترجم إلى حياة.** فالعناصر الخاصّة إذن بهذه القراءة هي في الأساس أربعة: الكلمة والروح القدس والصلاة والحياة، بهذه الطريقة يكشف لنا الكتاب المقدّس كلمته الحقّ الحكيمة التي يحويها والتي يجدها كلّ مَن كان على استعداد للبحث عنها بسلامة القلب والأمانة والحبّ.

* نماذج القراءة الربّانيّة في الحياة الكنسيّة

تتعدّد النماذج والطرق التي يدخل بواسطتها المسيحيّ في حوار مع الله، وتُبرز منها الصلاة المسيحيّة الفرديّة والجماعيّة بشكل واضح طريقة القراءة الربّانيّة. نحن أمام منهجيّة تستعيد تدريجيّاً المعنى الحقيقيّ للتأمُّل المسيحيّ وتحلّ مكان العديد من نماذج الصلاة التي يظهر أنّها تدوم طويلاً. نصّت على طريقة الصلاة هذه خبرات حركات التجدّد الكتابيّ والليترجيّ

والرهبانيّ. كما تتمتّع هذه الطريقة بدعم سلطة التقليد للآباء الذي أعيد اكتشافه من جديد. نجد في هذه الطريقة حركة العودة إلى الصلاة مع الكتاب المقدّس، وعمليّة احتواء لقراءة الكتاب المقدّس التي تصاحبها الصلاة، كما يقترح المجمع الفاتيكانيّ الثاني في وثيقته عن الوحي الإلهيّ رقم ٢٥.

من بين الطرق المختلفة التي تتمّ فيها القراءة الربّانيّة، هنالك طريقتان لم يتمّ تحديدهما بشكل كافٍ. طريقة الآباء الرهبانيّة ذات الطابع النظريّ التاريخيّ، والطريقة الراعويّة الليتورجيّة ذات الطابع الواقعيّ العمليّ. ليس من السهل تقديم عرض للنماذج المختلفة، لكنّنا نكتفي بعرض بعض الخصائص والميزات المشتركة بينها.

يُجمع الكتّاب على أنّ القراءة الربّانيّة في شكلها المنظّم والتي بدأت في القرن الثاني عشر على يد أحد الرهبان في كتابه «سُلّمُ الرهبان» أو «السلّم إلى السماء»، تتكوّن من أربع مراحل: **القراءة، التأمّل، الصلاة، المشاهدة**.

ويسعى بعض الكتّاب إلى توسيع فكرة القراءة الربّانيّة لتشمل ثمار الروح، وذلك بسبب تعقيد البنية النفسيّة التي تقود من التفكير إلى العمل. منهم مَن يُضيف أربع مراحل: التعزية Discretio، الحوار والعمل، ومنهم مَن يُضيف «المحبّة» وآخرون العمل Operatio. ليس من السهل التمييز عند هؤلاء الكتّاب حدود المراحل المختلفة للقراءة الربّانيّة. ففيما ينسبه البعض للقراءة، يَعْزيه البعض الآخر للتأمُّل. وسبب نقص الوضوح هذا يكمن في طبيعة القراءة الربّانيّة ذاتها. فالقراءة الربّانيّة مسيرة ديناميكيّة تنبع فيها كلّ مرحلة من مرحلة أخرى. ويظهر ذلك في الانتقال من الليل إلى النهار؛ فحين يبزغ الفجر يقول البعض «الوقت ليل» بينما يقول البعض الآخر «قد بدأ النهار».

كما أنّ الأمر يتعلّق بمواقف ثابتة مختلفة، مواقف توجَد وتعلَّل بطريقة متزامنة خلال القيام بالقراءة الربّانيّة، ولو كان ذلك بتركيز مختلف حسب

المرحلة التي يجد فيها الأشخاص والجماعات أنفسهم. إلاّ أنّ قيمة هذه الطريقة للجميع تكمن في إمكانيّة الوصول إلى المعنى الخلاصيّ والموضوعيّ لكلمة الله وفي القدرة على القيام بعمليّة استحواء شخصيّة عميقة، من دون أن نجعل التأمّل في كلمة الله عمليّة ذهنيّة محضة.

أمّا بالنسبة لشروط وأهداف القراءة الربّانيّة، فجميع الكتّاب تقريباً يتّفقون حول العناصر التالية:

١ – إستدعاء الروح القدس.

٢ – وحدة الكتاب المقدّس.

٣ – الجوهريّة والحيويّة.

٤ – الحضور الحقيقيّ للمسيح في الكتاب المقدّس.

٥ – تواضع ونقاء القلب.

أمّا بالنسبة للوقت والمكان ووحدة القراءة، فهناك العديد من الطروحات حسب الظروف والمُحيط والمعنيّين بالقراءة الربّانيّة. هدف القراءة الربّانيّة لمختلف المؤمنين هو نفس الهدف الذي من أجله أُعطيت لنا الكتب المقدّسة. بشكل عامّ، هنالك أربع غايات:

١ – الغاية اللاهوتيّة: أن يتمّ هذا الحوار مع الله وتظهر مشيئته.

٢ – الغاية المسيحانيّة: أن نصل إلى المعرفة السامية ليسوع المسيح.

٣ – الغاية الكنسيّة: أن تولد وتنمو جماعة مسيحيّة قائمة على الإيمان.

٤ – الغاية الإنسانيّة: أن يتحضّر المؤمن لكلّ عمل صالح ويتمتّع بالمقدرة على الحكم على الأمور الإنسانيّة بحسب مخطّط الله.

من ناحية أخرى، يركّز بعض الكتّاب على الصلاة العقليّة أو الصلاة الجماعيّة. الأمر يتعلّق في الواقع بصلاة مشتركة «تروي» فيها الجماعة خبرتها مع الله. فتصبح هكذا الصلاة الشخصيّة شركة في الروح القدس. ويمكن للصلاة أن تقوم بدور هامّ إمّا في نضوج الجماعة، أو في القدرة

على العيش معاً في نور الله لحظات نعمة تُعاش في الصلاة وتستوعبها الجماعة على أنّها تاريخ خلاص. تتعدّد مظاهر القراءة الجماعيّة، وتتّخذ أشكالاً مختلفة تتناسب مع الخبرات المتنوّعة. من هنا تأتي مرونة التعابير المستعملة للقراءة الربّانيّة: «حوار تأمّليّ»، مشاركة في الكلمة، قراءة جماعيّة. وفي أصل أشكال القراءة المختلفة هذه نجد ما حدّده البابا بولس السادس على أنّه «نفسيّة الكنيسة الجديدة» النابعة من وعيها لسرّها. أي إنّ الأمر يتعلّق بطريقة تفكير وعمل جديدة من قِبَل المؤمنين، تولد من اكتشاف جوهر الكنيسة، من كون المؤمنين عائلة الله، فيخلق هذا الوعي الجماعيّ منطقيّاً علاقات جديدة بين الأشخاص في المحبّة، ويعمل على تخطّي الفرديّة ويحوّل الصلاة إلى شهادة وشركة.

القراءة الربّانيّة هي أيضاً مسيرة تقوم بها الجماعة معاً، وتفترض بعض المتطلّبات وهي: الجماعة الصغيرة، الثقة المتبادلة والشجاعة، المقدرة على الإصغاء والقناعة أنّ الآخر بمقدوره أن يُنيرني. وبين ميزات هذه الطريقة أنّ طريقة الصلاة هذه تصبح وسيلة لعطاء الذات ولقبول الإخوة. تكشف إمكانات الإيمان؛ والإصغاء للآخرين يعكس ما ينقص التوبة الشخصيّة والالتزام للعمل. وبين مخاطر هذه الطريقة نذكر أنّ الصلاة في الجماعة قد تُخفي الشخص خلف تعابير تهدف إلى البناء، ويمكن بالتالي أن تقود إلى تعابير ذات أصول كتابيّة ولكنّها سطحيّة، فندخل في عمليّة نفسيّة واجتماعيّة تحرفنا عن اختبار الله.

أمّا بالنسبة للاستعمال الرعويّ للقراءة الربّانيّة، فيتساءل بعض الكتّاب عن إمكانيّة تحويل هذه المسيرة إلى حقيقة راعويّة للمؤمنين. ولا يخفى على أحد التخوّف من ممارسة القراءة الربّانيّة، خاصّة القراءة الشخصيّة. التردّد الأوّل ذو طابع ثقافيّ: يُقال إنّ الكتاب المقدّس صعب وليس في متناول الجميع. أمّا التردّد الثاني فهو ذو طابع كنسيّ: قراءة الكتاب المقدّس التي يقوم بها المؤمنون وحدهم خطرة، ويمكن أن تقود إلى النظرة الذاتيّة وإلى الأحكام الاعتباطيّة والهرطقة. وهنالك خطر آخر هو اعتبار القراءة الربّانيّة

أمراً روحيّاً محضاً يُبعِد المؤمنين عن الالتزام العمليّ. على هذه المخاوف جميعها يُجيب الكاردينال مارتيني مؤكّداً شرعيّة الاتّصال الشخصيّ والجماعيّ بكلمة الله، استناداً إلى الممارسة الكنسيّة القديمة، وبشكل خاصّ تمشّياً مع توجيهات المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني، الذي يحثّ المؤمنين على الاتّصال المباشر بكلمة الله، ولو كان ذلك بطريقة تدريجيّة، لمعرفة الربّ بطريقة العمق (وثيقة حول الوحي الإلهيّ، رقم ٢١ و ٢٥).

بعد هذا العرض السريع لآراء بعض الكتّاب حول استعمال القراءة الربّانيّة، نؤكّد ضرورة استمرار وتطوّر التفكير ليس حول الطريقة فحسب، بل بالخصوص في سبيل تقوية الخبرة المباشرة وتعزيز هذا العطش للقيم الحقيقيّة الذي يميّز شعب الله الراغب في قطف ثمار الإصغاء إلى كلمة الله في الليتورجيّا وفي الحياة.

٢. إستعدادات ضروريّة للقراءة الربّانيّة

كي تُعطي القراءة الربّانيّة ثمارها هنالك استعدادات ضروريّة لكلّ مَن أراد تطبيق طريقة القراءة الربّانيّة، خاصّة في تعامله مع الكتاب المقدّس. كما تؤكّده الكتب المقدّسة، الأمر يتعلّق ببعض الشروط العامّة التي تسهّل مسيرة اختبار الله من خلال الكتاب المقدّس: «هذه الكلمة قريبة منك جدّاً، في فمك وفي قلبك لتعمل بها» (تثنية ٣٠: ١٤).

هدف القراءة الربّانيّة في الواقع هو نفس هدف الكتاب المقدّس، كما يؤكّد القدّيس بولس لتلميذه تيموتاوس: «الكتب المقدّسة قادرة على أن تزوّدك بالحكمة التي تهدي إلى الخلاص في الإيمان بالمسيح يسوع» (٢ طيمو ٣: ١٥). وفيما يلي النقاط الرئيسيّة الضروريّة للقيام بالقراءة الربّانيّة.

* الإيمان بالمسيح الحاضر في الكلمة:

إنّ الإيمان هو نقطة الانطلاق التي تسهّل اختبار القراءة الربّانيّة. نقرأ الكتاب المقدّس انطلاقاً من الإيمان بيسوع المسيح الحيّ والحاضر في الجماعة المسيحيّة. المسيح هو مفتاح قراءة الكتاب المقدّس في القراءة

الربّانيّة. تشكّل كلّ الكتب المقدّسة كتاباً واحداً هو المسيح، لأنّ الكتب المقدّسة تتحدّث عن المسيح وتجد فيه تمامها. يساعد هذا الإيمان في فهم أفضل للكتاب المقدّس، ويساعد الكتاب المقدّس على فهم أفضل لمكانة المسيح في الحياة الروحيّة. فالكتاب المقدّس ليس شيئاً، بل شخصٌ، شخصٌ حيٌّ هو المسيح يسوع. من هنا تنشأ محبّة الكنيسة للكتاب المقدّس، ولهذا يتمّ عرض هذا الكتاب باحترام أمام المؤمنين، ويتمّ تبخيره وتقبيله من قِبَل الكاهن بعد قراءة الإنجيل في القدّاس الالهيّ، كما يوضع على رأس المكرّسين لدرجة الأسقفيّة. في الكتاب المقدّس حضور حقيقيّ للمسيح، وتدعو الكنيسة المؤمنين إلى تقوية رابطة الإيمان والشركة العميقة مع كلمة الله. قال أوريجينوس إنّ الكلمات المكتوبة في الكتاب المقدّس ليست سوى كلمات المحبّة يتبادلها المسيح العريس مع عروسه الكنيسة.

من ناحية أخرى تؤمن الكنيسة أنّ الكتاب المقدّس هو كتاب مُلهَم من الله وأنّ الروح القدس هو في نفس الوقت مؤلِّفه والمحتوى ذاته لهذا الكتاب. ومن هنا نفهم مغزى ما نشاهده في بعض الكنائس التابعة للأديرة الرهبانيّة أو الطقوس الشرقيّة. فهي لا تضع قنديلاً مُشتعلاً فقط أمام القربان الأقدس، بل أيضاً أمام المسيح – الكلمة في الكتاب المقدّس المعروض لإكرام المؤمنين.

فالكنيسة تنظر إلى الكتاب المقدّس بطريقة مشابهة لنظرتها إلى القربان الأقدس. فكما أنّه في عنصرَي الخبز والخمر المسيح القائم حاضر، هكذا في كلمات الكتاب المقدّس المسيح نفسه حاضر أيضاً. ويؤكّد المجمع الفاتيكانيّ الثاني أنّ «الكنيسة قد أحاطت دوماً الكتب الإلهيّة بالإجلال الذي أحاطت به جسد المسيح. وهي تتناول دوماً خبز الحياة عن المائدة نفسها التي حملتْ معاً جسد الربّ وكلمة الله. إنّها تتناوله وتوزّعه على المؤمنين ولا سيّما عندما تقوم بخدمة الليتورجيّا الإلهيّة» (الوحي الالهيّ رقم ٢١). الإيمان بالكتاب المقدّس جعل هذا الكتاب مرجعيّة وجودنا وحياتنا، والطريق الموجّه لتصرّفاتنا ولطريقة صلاتنا؛ يعني هذا الإيمان

اعتبار الكتاب المقدّس النبع الأوّل بامتياز، الذي ننهل منه حِكمة الله، مُدركين أنّه لا يجوز مقارنة هذا الكتاب بأيّ كتاب آخر، وأنّ فيه المسيح حيّ، يحدّثنا ويدعونا ويدلّنا على طريق الحياة.

* توبة القلب أمام كلمة الله

في سبيل التعرّف على كلمة الله والقيام بالقراءة الربّانيّة فإنّ توبة القلب المستمرّة أمام الكتاب المقدّس، هي من الشروط الضروريّة. يعلّم مُرشدو الحياة الروحيّة أنّه لا يمكن التعمُّق في الكتاب المقدّس إذا لم يقم المؤمن بخلق جوّ من الصمت الداخليّ الذي يسهّل توبة القلب والسلام الداخليّ. إنّ الإصغاء إلى الكتاب المقدّس هو وسيلة أساسيّة للحياة الروحيّة للمسيحيّ (راجع تثنية ٦: ٣ – ٩). فنحن نحيا حياة الروح بقدر ما نفسح المجال للكتاب المقدّس ليُحيي كلمة الله في قلوبنا.

لا يستطيع الإنسان أن يلج إلى كلمة الله، بل هي كلمة الله التي تستولي على الإنسان، وتكشف له أسرارها. إنّ وعي معاني الكتاب المقدّس هو في الواقع نتيجة موهبة كنسيّة، لا تنكشف لأشخاص يدرسون الكتاب المقدّس، بل لمؤمنين منفتحين على عمل الروح القدس. إنّ الإصغاء إلى الكتاب المقدّس معناه الاستسلام لعمل الله الذي يخلّص ويجدّد الحياة. الاصغاء إلى الكتاب المقدّس معناه أن نترك صوت المسيح يقودنا لنقرأ أحداث حياتنا كتاريخ خلاص، لأنّ المسيح مُختفٍ في الكتاب المقدّس، كما يقول آباء الكنيسة، والذين يستمرّون بثبات في البحث والقراءة المتأمّلة في الكتاب المقدّس يجدون ملكوت الله. علينا أن نقبل مخطّط الله بالاستعداد نفسه الذي دفع صموئيل الشابّ إلى أن يقول: «تكلّم يا ربّ فإنّ عبدك يسمع» (١ صموئيل ٣: ١٠)، وندع أنفسنا ننجذب نحو الله.

هناك عاملٌ علينا أن لا ننساه في مسيرتنا للتوبة أمام كلمة الله. نعلم جيّداً أنّ كُلاً منّا يقترب من الكتاب المقدّس انطلاقاً من ذاته، من مُحيطه

وعالمه وأفكاره وطريقة فهمه للأمور. من هنا فإنّ أذهاننا يجب أن تكون مُنفتحة وأن نتقبّل التغيير. ومعنى هذا أنّ الاستعداد الداخليّ لا يكفي للتوبة، بل علينا أن ننتبه إلى أفكارنا وطريقة تفكيرنا التي غالباً ما تكون غير واعية. على المؤمن إذن أن يكون واعياً لحرّيّته واستعداده للتغيير أمام كلمة الله. الأمر يتعلّق بالشعور في داخلنا بالسؤال السليم الذي علينا أن نسأله للكتاب المقدّس، وهو سؤال عن الوجود وعن الله: علينا جعل هذه الأسئلة أسئلتنا الخاصّة، كجزء من الجماعة المسيحيّة ومن الكنيسة التي تعيش اليوم في استمراريّة التقليد والإيمان.

إنّ التوبة الحقيقيّة تتأكّد عندما يستجيب المؤمن لله بعد إصغاء لكلمته. على المؤمن أن يستسلم لتسبيح القلب الصامت في جوٍّ من البساطة والصلاة. وهكذا يمكن للقارىء لكلمة الله أن يُصبح تلميذًا «ويستطيب كلام الله الحسن» (عب ٦: ٥).

قراءة الكتاب المقدّس لا تكفي. يجب هضمها إذا رغبنا في أن تتغلغل هذه الكلمة في حياتنا، وأن نتحلّى بالشجاعة لأن تقودنا كلمة الله وتتحدّانا. وأن نجعلها تغيّر حياتنا (راجع مرقس ١: ١٥). الخطوة الأولى نحو التوبة، التي هي عطيّة من الله، هي الإقرار بحدودنا، الإقرار بخطايانا. من الضروريّ الانتقال من عقليّة الاكتفاء الذاتيّ إلى الاتّكال الكامل على الله وعلى كلمته. فكلّ ما يتعارض مع نوره ومع حقيقته، مثل الأنانيّة ورفض إرادة الله، يجب محوه. علينا التخلّي عن مسلّماتنا «لنَلْبس» الله، لأنّ محبّة الله التي تأخذ زمام المبادرة، تملأ قلب التلميذ دون أن تفرض نفسها ودون إجبار. إنّ الاهتداء إلى الله هو قبول كلمته والدخول في صمت الله وفي بساطة الحياة التي هي عطيّة على مثال المسيح، وهي مشاركة في حوار المحبّة بين الآب والابن بنفحة الروح القدس.

* إستدعاء الروح القدس بثقة

إنّ طلب عطيّة الروح القدس في الصلاة هو الاستعداد الثالث

الضروريّ لفهم معنى كلمة الله. نعلم أنّ الروح القدس ألهم الكتاب المقدّس، وهو محتوى هذا الكتاب لأنّه وحده يعلم أعماق الله، ويمنح النعمة المشارِكة في الحياة الإلهيّة. يمكن استعمال كلّ التقنيّات والطرق للدخول في عالم الكتاب المقدّس، إلاّ أنّه بدون نعمة الروح القدس يبقى الكتاب المقدّس مُغلقاً. وحده الروحُ القدس يجعل رسالة الكتاب المقدّس مفهومة. وقد عرض المجمع الفاتيكانيّ الثاني هذا الموضوع بوضوح حين قال: «إنّ الكتاب المقدّس لا يُقرأ ولا يُفسَّر إلاّ في نور ذاك الروح الذي في نوره تمّت كتابته» (الوحي الإلهيّ رقم ١٢). فالصلاة في الروح القدس قادرة وحدها أن تُنير العقل والقلب، وأن تنزع عن أعيننا الغشاء الذي يحول دون تأمّل المسيح الذي يكلّمنا بكلمته (راجع ٢ كورنتس ٣: ٢١ – ١٦). لكن من هو الروح القدس؟ نعلم أنّ الروح القدس في التقليد الغربيّ هو رابطة المحبّة بين المُحِبّ والمحبوب، الروح هو الحبّ بيننا حسب التقليد الشرقيّ الذي يتأمّل المسيح مائتاً على الصليب بينما يمنح الروح للكنيسة الناشئة (راجع يوحنّا ١٩: ٣٠) . فالروح هو عطيّة الله، هو مَن يجعل الله يخرج من ذاته، هو ظهور الله. وكما يقول القدّيس أثناسيوس: «الروح هو مَن ظهر في الجسد ليستطيع الإنسان الظهور في الروح».

ما معنى استدعاء نعمة الروح القدس في الصلاة؟ معنى ذلك أنّ الروح، ينبوع الوحدة والسلام، يقودنا إلى وحدة السرّ، إلى فهم أنّ المسيح قد أصبح بشراً، تألّم ومات وقام ليُرسل إلينا الروح القدس. كان القدّيس أفرام يؤكّد دائماً أنّه: «فقط إذا كنّا قد ارتوينا من الروح القدس نستطيع أن «نشرب» المسيح». فالصلاة إذاً في هذا الإطار هي مدرسة حوار وشركة. وبما أنّ الروح هو كلّ جديد وانفتاح ورجاء، فمَن «يصلّي في الروح» يكون أميناً ومجدّداً ونبيّاً. نصبح في الروح أنبياء دون أن نعلم. فالنبوّة هي عمل الروح نكتشفه بالتدريج. يقول القدّيس بولس إنّ الروح هو الذي يولّد الصلاة في قلب المسيحيّ بطريقتين: يصرخ فينا «أبّا، أيّها الآب» (غل ٤ – ٦). ويُحدث فينا «أنّات لا توصف» (روم ٨: ٢٦). وهاتان

الطريقتان متأصّلتان في مَن يصلّي، وتتّضح له بالتالي طريقان: طريق «الكلمة» التي تثبّت فيه السرّ، وطريق «الصمت» التي تعبّر عن التسبيح التأمّليّ. وهذه الطريقة الثانية تفتح قلب الإنسان لاختبار الله، لأنّ الصمت هو البيئة المناسبة التي تنمو فيها الكلمة والصلاة.

إنّ المعنى العميق لكلمة الله هو إذن سرّ يعلّمه الروح فقط ويكشفه لمن يريد، كما يُريد وحينما يُريد. من هنا أهمّيّة استدعاء الروح القدس في كلّ مرّة نقرأ فيها الكتاب المقدّس، لئلاّ نقع في خطّ الاستهلاك الفرديّ للكلمة أو الأحكام الاعتباطيّة أو الشخصيّة على كلمة الله. إن لم يملك المؤمن عطيّة الروح التي نطلبها في الصلاة، لا يستطيع أن ينْفُذَ إلى عمق الكتاب المقدّس. أمّا إذا حصل على هذه العطيّة، فهو قادر على الدخول في أعماق أسرار كلمة الله. يجب إذن طلب هذه العطيّة في الصلاة. وتكون هذه الصلاة باسم المسيح لأنّه وعد أنّ: «كلّ شيء سألتم باسمي أعمله، لكي يمجَّد الآب في الابن. إذا سألتموني شيئاً باسمي أعمله» (يوحنّا ١٤: ١٣– ١٤).

بهذه الطريقة فقط، يستطيع المؤمن الذي يُنيره الروح أن يكون للإخوة كلمة حيّة، والتي هي نور وحضور إلهيّ كما يوضح لنا القدّيس سمعان اللاهوتيّ عندما كتب: «الإنسان الذي دخل في عائلة مَن ألْهَمَ الكتب المقدّسة يُصبح هو ذاته للآخرين كتاباً مُلهَماً يحمل الأسرار القديمة والحديثة».

* الشركة مع الكنيسة.

إنّ الحياة في الشركة مع الكنيسة هو استعداد آخر أساسيّ للدخول في نور كلمة الله في مسيرة القراءة الربّانيّة. إنّ القراءة الربّانيّة تقوم، ولها مبرِّر، فقط في الكنيسة التي هي جسد المسيح والتي تجمع المؤمنين. هي المكان الذي يسكن فيه الروح. إنّها جماعة إيمان، فيها نصبح مسؤولين ونسعى لعيش الغاية العُظمى للكتاب المقدّس «ليكونوا بأجمعهم واحدًا»

(يو ١٧: ١١). وهو ما يجعل الإصغاء لكلمة الله إصغاءً حقيقيّاً وأصيلاً. إنّ الجماعة المنسيّة هي البيئة التي فيها تولد وتنمو كلمة الله، المكان الذي تنتشر فيه هذه الكلمة.

في القراءة الربّانيّة نعي أنّ الكتاب المقدّس كنزٌ موضوع بين أيدي المؤمنين، بطريقة حيّة، من قِبَلِ جماعة حيّة. الكتاب المقدّس، حتّى ولو قُرئَ بطريقة فرديّة، يقود دائماً إلى جماعة تجعل من هذا الكتاب مركز حياتها الحيويّ. كانت الجماعة المسيحيّة الأولى في القدس والتي تمت تحت قيادة بطرس وباقي الرسل كجماعة أخويّة حول مريم، «قلباً واحداً ونفساً واحدة» في الإصغاء للكلمة وفي الصلاة وفي الاحتفال بالإفخارستيّا وفي وضع كلّ شيء مُشتَركًا بينهم، والمحبّة تجاه المعوزين (راجع أعمال ٢: ٤٢– ٤٧).

وُلد الكتاب المقدّس في الجماعة، ويُفهم في الجماعة التي يكشف الله لها نفسه ويمنحها فهماً للكلمة، كي لا يكون دافع المؤمن ادِّعاءً ذاتيّاً، بل تواضعاً أمام الكلمة وأمام جماعة إخوة الإيمان. أكّد البابا وعالِم الكتاب المقدّس غريغوريوس الكبير بكلّ تواضع: «أعلمُ جيّداً أنّ الكثير من حقائق الكتاب المقدّس التي لم أُفلح في فهمها، استطعت تبيان معانيها عندما كنتُ أُصغي لإخوتي المؤمنين». أي إنّنا نفهم الكلمة بطريقة صحيحة فقط حيثما تُعاش الكلمة، أي في الكنيسة. خارج هذا الإطار، كلمة الله هي كلمة مكتوبة تحوي في ذاتها رموزاً وأشكالاً متبلورة لفترات زمنيّة ماضية. الجماعة الكنسيّة – الشركة – هي وحدها المكان الملائم الحقيقيّ لقراءةٍ خلاصيّةٍ للكتاب المقدّس في الوقت الحاضر.

تتحمّل كلّ الجماعة المسيحيّة المسؤوليّة النبويّة في الفهم المشترك لكلمة الله، فتصبح قاعدة لصدق هذه الكلمة. حتّى آباء الكنيسة اعتبروا الجماعة المسيحيّة جسداً حيّاً وعضويّاً. كلّ شعب الله، الذي هو الكنيسة، هو المكان الملائم حيث يكون لكلمة الله صدًى، وحيث يعمل الروح في مَن يعلن الكلمة وفي مَن يسمعها. وصيّة أسرار الإيمان التي يُعلنها الرعاة

تُعاش معاً من قِبَل الجماعة المسيحيّة في العبادة وفي الحياة. إنّ طريقة قراءة الكتاب المقدّس «في الكنيسة» أصبحت جزءًا من التقليد الحيّ للكنيسة. الكتب المقدّسة بالنسبة لآباء الكنيسة، أكان ذلك قراءة العهد القديم قراءة مسيحيّة أو قراءة العهد الجديد، هي كتب أُلّفت لتُعلَن كبُشرى سارّة حيّة دائماً في ليتورجيّة التجمّعات الإفخارستيّة، وهي عامل رئيس في «تجمُّع الربّ المقدّس»، لتجمع شعب الله الجديد، في الجماعة الأخرويّة والمسيحانيّة حول الحمل (راجع أشعيا ١٢: ١ – ٣، ١٦؛ ١ كور ٥: ٧ – ٨؛ عب ١٢: ٢٣). إنّ الكنيسة كجماعة – شركة هي المؤتَمَنة على كلمة الله الموجّهة لها، هي المفسِّرة الحقيقيّة للكتاب المقدّس، هي الجهة المؤهّلة لإعادة قراءةٍ خَلاصيّةٍ للكتاب المقدّس في الوضع الحياتيّ التاريخيّ الحاليّ: «فقط الكنيسة هي مقياس الكتاب المقدّس، تتمتّع هي فقط بقلب كبير بحيث تستطيع فهم هذه الكلمة التي تفوق كلّ الطاقات الطبيعيّة وفائقة الطبيعة لكلّ من أبنائها منفردًا». تفهم الكنيسة دائماً رسالة الكتاب المقدّس بطريقة أفضل وتقدّمه بعمق للمؤمنين بوضوح متزايد وبعمق أكبر فقط بتأثير عمل الروح القدس خلال المراحل المتعاقبة لمسيرتها، مُدركة أنّ سلطتها التعليميّة «لا تعلو كلمة الله، بل تخدمها ولا تعلّم إلاّ ما تسلّمَته من التعاليم» (الوحي الإلهيّ، رقم ١٠).

يتلقّى مسيحيّو اليوم، كجزء حيّ من جماعة الإيمان، من الكتاب المقدّس، حياة روحيّة ويعيشون في وحدة مع الكنيسة الحقائق الحيويّة والتاريخيّة لكلمة الله. لذا فقراءة الكتاب المقدّس هي قراءة جماعيّة وكنسيّة، بمعنى شركة جميع المؤمنين في كلّ مرحلة تاريخيّة، وكذلك بمعنى أنّ المؤمنين قد عبّروا في النصّ المقدّس عن إيمانهم وعاشوا بطريقة أصيلة حياة كنسيّة، كجماعة حاضرة دائماً، والتي هي المكان الذي تتحوّل فيه كلمة الله إلى كلمة موجّهة لنا اليوم وفاعلة فينا، موجّهة لإنسان اليوم، كمصدر للحوار والمشاركة والوحدة. إنّ انفصال القراءة الربّانيّة عن الكنيسة (الروح القدس، السلطة التعليميّة، جماعة الإيمان) خيار اعتباطيّ وفرديّ.

إنّ الكتاب المقدّس والتقليد والسلطة التعليميّة لا تتعارض، بل تتكامل. إنّ مبدأ تفسير الكتاب المقدّس وفهمه بشكل سليم يوحِّد الكتاب المقدّس الذي يُقرأ داخل الكنيسة وعلى ضوء السلطة التعليميّة للكنيسة. ومن الضروريّ لقراءة الكتاب المقدّس بطريقة متكاملة غير مجزّأة، العودة إلى التقليد والسلطة التعليميّة الكنسيّة. إنّ كلمة الله، كما يقول القدّيس غريغوريوس الكبير، هي «خبزٌ نتناوله في البيت، أي في الكنيسة المقدّسة حيث تغذّينا الكلمة الإلهيّة»، دون أن نتشبّه بمن يستغلّون الكتاب المقدّس، الذين يتناولون القشور ولا يكتشفون كُنه الكتب المقدّسة والذي هو المحبّة».

* وحدة وشموليّة الكتاب المقدّس

إنّ وحدة وشموليّة الكتب المقدّسة هي عامل آخر ضروريّ لضمان فهمٍ سليم للقراءة الربّانيّة. فالكتاب المقدّس يشكِّل وحدة واحدة كبيرة. ففي كشف الله لمخطّطه الإلهيّ، لكلّ نصّ من الكتاب المقدّس مكانته ووظيفته المنطقيّة في داخل الكتاب المقدّس ككلّ. فالأجزاء المختلفة للكتاب المقدّس هي كالحجارة التي نستعملها لبناء ضخم: فالأجزاء المختلفة، حينما توضع معاً، تشكِّل المخطّط الخلاصيّ لله في تاريخنا البشريّ. مبدأ وحدة الكتاب المقدّس يمنعنا إذن من عزل النصوص المقدّسة وفصلها بعضها عن بعضٍ، وفصلها عن إطارها العامّ، وتكرار بعض هذه النصوص وكأنّها وحدها تشكِّل حقائق قائمة بذاتها. أَخْذُ الكتاب المقدّس كوحدة واحدة، ككلمة واحدة لله موجّهة للبشر، هو تقليد في الكنيسة. فالكتاب المقدّس هو في الواقع سرد لخبرة بشريّة ودينيّة لشعب العهد القديم وللجماعة المسيحيّة الأولى مع الله، في مسيرتها التاريخيّة. ويكلّمنا المجمع الفاتيكانيّ الثاني بوضوح عن وحدة الوحي في عهديه: «إنّ الله، واضع الأسفار المقدّسة بعهديها، القديم والجديد، ومُنزل الوحي فيها، قد رتّبها بحكمة، فكانت أفكار العهد الجديد دفينة في العهد القديم، بينما اكتسبت أفكار العهد القديم معاني واضحة في ضوء العهد الجديد: صحيح أنّ المسيح قد أسّس عهده الجديد على ذبيحة دمه (لو ٢٢: ٢٠؛ ١ كو ١١: ٢٥)، غير أنّ أفكار العهد القديم ما

بلغت كمالها النهائيّ إلاّ في العهد الجديد. وفيه تكشف عن معانيها الحقيقيّة، بعد أن تبنّتها واحتوتها رسالة الإنجيل (متّى ٥: ١٧؛ لو ٢٤: ٢٧؛ روم ١٦: ٢٥ – ٢٦؛ ٢ كور ٣: ١٤ – ١٦). وتكتسب هذه الرسالة الإنجيليّة في كتب العهد القديم شرحاً وتفسيرًا» (الوحي الإلهيّ، رقم ١٦).

إنّ تاريخ الخلاص في الكتاب المقدّس له نفس الغاية؛ وتربط المراحل المختلفة لهذا التاريخ بعضها مع بعض. كلّ منها يخطّ ويُعلن ويحقّق جزئيًّا المرحلة التي تتبعه ولو بطريقة غير كاملة. من هنا فإنّ على القراءة الربّانيّة أن تراعي مبدأ «القراءة الشاملة» لأنّ العهد القديم في علاقة قويّة مع العهد الجديد، فينفتح عليه كتحضير له، وكنبوءة به، ويحويه بطريقة ضمنيّة. كما أنّ العهد الجديد يوضح ويفسّر العهد القديم ويطوّره ليصل به إلى الكمال، بطريقة تجعل العهدين مترابطين بطريقة لا يمكن فصلها. إذا قُطعت جذور شجرة ما، فإنّ هذه الشجرة تموت. جذور الوحي موجودة في العهد الأوّل، فقيمة العهد الجديد وتعاليم المسيح تفقد معانيها دون الاستناد إلى كتب العهد القديم. في النهاية، السيّد المسيح أتى ليكمّل الكتب لا ليلغيها (راجع متّى ٥: ١٧).

هنالك في كلّ الكتاب المقدّس نظرة يجب التركيز عليها، وهي أنّ على المؤمن أن يكتشف في الكتاب المقدّس شخصَ المسيح وسرّه. هذه العقليّة التي يُنيرها تاريخ الخلاص، تجعل من آباء الكنيسة نموذجاً عندما نرغب في تطوير المعنى التاريخيّ الخلاصيّ للوحي في اللاهوت. وعلى الرغم من أنّنا غير ملزمين باتّباع الآباء في كلّ جوانب طريقتهم اللاهوتيّة، إلاّ أنّ الفكرة الرئيسة تبقى ذات قيمة ونموذجيّة: وحدة مخطّط الله الذي يحوي تدبير الله الخلاصيّ التاريخيّ، المركّز على شخصيّة ورسالة المسيح. في وسط تفكير الآباء اللاهوتيّ نجد تعبير سرّ الخلاص. يكفي أن نفكّر في بعض مفاهيم الآباء، مثل الوحدة النهائيّة في المسيح (récapitulation) للقدّيس إيرينوس، السرّ لدى أوريجينوس، بمفهومه ككلمة الله Logos الذي يُعطى للإنسان ككلمة الله، أو المسيح التاريخيّ،

أو جسد الكنيسة؛ «التألّه» لدى أثناسيوس؛ لاهوت التاريخ والمسيح الشامل لدى القدّيس أوغسطينوس. إنّ الفكرة المركزيّة عند الآباء هي هذه: يتكلّم كلّ الكتاب المقدّس عن المسيح ويهمّ بالتالي كلّ إنسان. إنّ تدبير الخلاص هذا يُنير كلّ دراسة مسيحيّة حول الإنسان جديرة بهذا الاسم. وعندما يشرح مثلاً القدّيس أمبروسيوس حقائق الإيمان الكبرى، فإنّه لا يستعمل نصوصاً، بل أمثلة واقعيّة من البشر: إبراهيم، إسحق، يعقوب، أيّوب، داود. إنّهم كلّ واحد منّا! إنّ كلمة الله يصبح هكذا أكثر ألوهيّة وأكثر إنسانيّة، لأنّنا جميعاً نشترك في تاريخ خلاص الله الوحيد، الذي يتوجّه إلى كلّ إنسان فيما يهمُّ الإنسان. فالكتاب المقدّس يشكّل وحدة واحدة شاملة لمخطّط الخلاص الذي تمّ في المسيح المائت والقائم من بين الأموات. الكتاب المقدّس تاريخ، وعدم أخذ هذا الأمر بعين الاعتبار يعني حرمان الكتاب المقدّس من أيّ علاقة مع الواقع. إنّ القراءة الربّانيّة تضع المؤمن في اتّصال مع المسيح: بكلمته، بحياته، بوجوده كقائم من بين الأموات من خلال خبرة الشهود الأوائل، من خلال الخبرة الحيّة لكلّ كنيسة ولكلّ مؤمن.

٣. أفكار مرشدة ضروريّة للقراءة الربّانيّة.

* القراءة الربّانيّة بيت للجميع.

قبل أن نعرض لطريقة القراءة الربّانيّة ومراحلها المختلفة، من المناسب التأكيد على بعض القناعات التي ظهرت من خلال خبرة السنوات الماضية، والتي يمكنها مساعدة من يسلكون هذا الطريق ويعانون من صعوبات. القناعة الأولى، والتي أكّدت عليها العديد من الوثائق الكنسيّة، هي أنّ القراءة الربّانيّة مكان يستطيع الجميع العيش فيه واتّباع مسيرة الإيمان والنضوج المسيحيّ. إنّ بيت كلمة الله المشترك بين الجميع هو الجماعة المسيحيّة، الرعويّة أو الرهبانيّة، حيث إنّ القراءة الربّانيّة هي طريقة صلاة وطريقة تفكير لاهوتيّ في الوقت عينه. وتنبع أهمّيّة هذه القناعة من عدّة أسباب:

تُستعمل القراءة الربّانيّة بشكل عامّ اليوم كطريقة صلاة. من الشائع اعتبار الصلاة والتفكير اللاهوتيّ طريقين منفصلين؛ إلاّ أنّ الخبرة تؤكّد أنّ القراءة الربّانيّة هي في نفس الوقت طريقة صلاة وطريقة تفكير لاهوتيّ، لأنّ من خواصّ القراءة الربّانيّة تجاوز كلّ تمييز. وتقوم الصلاة الربّانيّة في الصلاة وفي التفكير اللاهوتيّ في الكنيسة بطريقة تعرض فيه مسيرة إيمان حقيقيّة، كما تؤكّد العديد من الوثائق الكنسيّة. إنّ الكلمة تبقى الطريقَ الملوكيّ لمعرفة قلب الله: «في عمليّة المكاشفة هذه (الوحي) يخاطب الله، وهو الذي لا يُرى، جماعة البشر، من فيض حنانه، كما يُخاطب الأحبّاء. إنّه يتحدّث إليهم ليطلب منهم أن يشاركوه في حياته» (الوحي الإلهيّ، رقم ٢)؛ «إنّ كلام الله يحمل قوّة وعزماً عظيمين حتّى إنّه يُصبح رُكناً للكنيسة وعزّة، ولأبناء الكنيسة متعة إيمان، ولنفوس المؤمنين غذاء، ولحياتهم الروحيّة مُعيناً دائم الجريان» (الوحي الإلهيّ، رقم ٢١).

القراءة الربّانيّة هي في نفس الوقت قراءة للكتاب المقدّس وقراءة للخبرة المعاشة، أي إنّها طريقة لقراءة الكتاب المقدّس من خلال التركيز على الحياة. نستطيع القول إنّها «قراءة الكتاب المقدّس» و«قراءة الحياة» معاً. تجسّدت كلمة الله في الماضي، وتتجسّد اليوم لتكون معنا ولتساعدنا في مواجهة الكثير من المشاكل ولتمنحنا الرجاء. يقول سِفر المزامير: «لعلّنا اليوم نسمع صوته» (مز ٩٥: ٧). فالقراءة الربّانيّة هي «نبع نستقي منه الأسس كي نحكم حُكماً سويّاً على معنى الحقائق الزمنيّة وقيمتها بالنظر إلى غاية الإنسان» (رسالة العلمانيّين ٤).

من ناحية أخرى فإنّ أسلوب القراءة الربّانيّة كما تطوّر من خلال حياة الكنيسة، هو أسلوب الكتاب المقدّس نفسه. ففي الماضي شكّل هذا الأسلوب الطريقة الرئيسة لكتابة اللاهوت في الكنيسة، وكان المعلّم الأساسيّ في عهد الآباء وزمن القدّيس مبارك الذي بنى قانونه الرهبانيّ عليها. وقد أصبحت القراءة الربّانيّة اليوم أرضاً خصبة في عمليّة «التبشير الجديد» للشعب المسيحيّ ولتجديد الجماعات المسيحيّة والرهبانيّة. يؤكّد

المجمع الفاتيكانيّ الثاني: «إنّ علم اللاهوت يرتكز على كلام الله المدوّن، ومعه على التقليد المقدّس كأنّما على أساس ثابت. بكلام الله يتعزّز عِلم اللاهوت تعزيزاً متيناً، وبه يتجدّد تجدّداً دائماً، إذ إنّه لا يفتأ يستقصي، في ضوء الإيمان، الحقائق الكاملة المخفيّة في سرّ المسيح» (الوحي الإلهيّ، ٢٤).

* القراءة الربّانيّة تُعيد اكتشاف الكتاب المقدّس في شكله الروائيّ

تشكل إعادة اكتشاف الكتاب المقدّس في أسلوبه الروائيّ عنصراً آخر يبرز من خبرة القراءة الربّانيّة. فما هو الكتاب المقدّس؟ الكتاب المقدّس ليس نصّاً أو كتاباً، بل كتاب روايات غنيّة بقيم الحياة يقود إلى خبرة الحياة مع الله. الكتاب المقدّس هو مجموعة حقبات تاريخيّة تحدّثنا عن تاريخ شعب الله. أسفار الكتاب المقدّس هي أسفار روائيّة. ومع أنّها تحوي حِكَماً أو شرائع، فهذه أيضاً لها صفة الروائيّة.

كُتِب الكتاب المقدّس لِبثّ قيم إنسانيّة ودينيّة. كتب الله تاريخاً لينقل إلينا قيماً، والروايات هي الوسيلة التي تنقل بها حضارةٌ ما قيَمها. وقد يصعب فهم هذه الحقيقة في عقليّة الإنسان المعاصر، الذي يحمل عقليّة وثقافة مغايرة. فالحضارة الغربيّة السائدة، مع ما تمنحه للعقل من قيمة كبرى، مقتنعة أنّ العقلانيّة هي وسيلة المعرفة والحِكمة الأفضل. فتعلّم مثلاً أنّ الروايات تصلح للأطفال وللتسلية، لكنّها ليست أموراً جدّيّة، بينما ما يصلح للبالغين هو الكتب التي يجب أن تحوي معلومات أكيدة ومعلومات موضوعيّة.

ينتج عن هذا التفكير أنّ القيم تنتشر دون أن يكون وراءها أشخاص واعون لها. وهنا مكمن الخطأ. فقد فقدت الحضارة الغربيّة فنّ ومقدرة الرواية. نحن نعلم أنّه في كلّ الحضارات، بما فيها الحضارة الغربيّة، تشكّل الرواية الطريقة المفضّلة لتناقل القيم والذكريات الجماعيّة والتقاليد. فحين نقرأ كتاباً، فإنّ العقل يكون فاعلاً حيويّاً، والمواضيع موضوعيّة. بينما

عندما نسرد رواية، فإنّ المشاعر والقلب والمخيّلة تشارك بفاعليّة، والرواية تتبع منطقها الخاصّ وهو أمر شخصيّ. لنتذكّر على سبيل المثال الزمن الذي كان فيه الأهل والأجداد ينقلون القيم لأبنائهم وأحفادهم عن طريق الروايات، ويربّونهم على هذه القيم.

الأمر ذاته يحدث في الجماعة المسيحيّة التي تقرأ الكتاب المقدّس. نقرأ الكتاب المقدّس لأنّه يسرد روايات وذكريات لاكتساب القيم. فعندما أراد الله، الذي يعرف طبيعة الإنسان جيّداً، أن ينقل قيماً، وأن يلقّننا دروساً في الحياة، استعان بالروايات. وبالتالي فالله أرسل للبشريّة تاريخاً حيّاً في شخص يسوع المسيح. فمن الضروري إذن إعادة تعليم شعب الله بجدّيّة هذه الروايات لاكتشاف الرواية عن الله وعن يسوع المسيح في سبيل تعليم مسيحيّ فعّال. قراءة الرواية هي إذن الطريقة الأعمق للاتّصال بالله ولنشر كلمته لكلّ البشر، الصغار والكبار، لأنه لهذا كُتِبَ الكتاب المقدّس.

*** تقرأ القراءة الربّانيّة الرواية التي يتناقلها تقليد الكنيسة الحيّ.**

القاعدة الثالثة التي تحكم القراءة الربّانيّة هي التالية: هنالك طريقتان لقراءة روايات الكتاب المقدّس، الأولى هي القراءة المحايدة وغير الشخصيّة والثانية وجوديّة وحيّة، وهي التي تأتي من التقليد. في الحالة الأولى نصل في قراءة الكتاب المقدّس إلى حدّ التعرّف على ذواتنا من خلال أشخاص الكتاب المقدّس. إلاّ أنّه عند انتهاء القراءة، يجد الإنسان نفسه غريباً، لأنّ هذا ليس عالمه، فهذه القراءة جعلته للحظة يخرج من ذاته وهذا كلّ شيء. وهذا يُشبه مَنْ يُشاهد في التلفزيون التمثيليّات الطويلة: تشدّك البداية، إلاّ أنّك عند النهاية تجد نفسك بعيداً وغريباً عن الحقيقة. أمّا قراءة الكتاب المقدّس فمختلفة تماماً، فهي رواية تناقلها التقليد الحيّ. فهي تكشف لك من أين أتيت وإلى أين تذهب وما معنى حياتك. الكتاب المقدّس يروي رواية تأتي من التقليد، رواية تمسّ كلّ إنسان بطريقة شخصيّة، لأنّها كُتبت لهذا الغرض. الكتاب المقدّس تاريخ يخصّ الجميع. ونتعلّم من هذا التاريخ كيف نتعرّف على أنفسنا وعلى الله.

قناعتنا إذن هي أنّ القراءة الربّانيّة تمثّل الأسلوب الروائيّ بأشكاله المختلفة. يجب أن لا يُقرأ هذا الأسلوب كأمر في الماضي، بل كروايات تساعد على فهم مكانة الإنسان اليوم وأين يتّجه غداً. تكمن الصعوبة دائماً في أنّنا لا نستطيع التخيّل أنّ هذه الروايات تحدث في تاريخ الجماعة المسيحيّة اليوم، وهكذا نظنّ أنّها أحداث حصلت فقط في الماضي مع أناسٍ آخرين. إنّ الطريقة التي يقرأ بها الكثيرون الكتاب المقدّس تُعطي الانطباع أنّنا ننظر إلى هذا الكتاب ونتشبّه به لكونه يحمل رسالة، لا كأمر نعيشه بالفعل الآن.

في القراءة الربّانيّة، لا يستطيع المؤمن أن ينسى الحياة، بل العكس، عليه أن يستوعبها. وحين يُبقي المؤمن الحياة أمام ناظريه، يكتشف أنّ الكتاب المقدّس ما هو سوى انعكاس لما يعيشه. وهكذا يُصبح الكتاب المقدّس مرآة ما يحدث في حياة وفي قلب كلّ إنسان (راجع يعقوب ١: ١٨ – ٢٥).

ترتكز القراءة الربّانيّة إذاً على مبدأ أنّ الكتاب المقدّس هو رواية هدفها تفسير ليس ما يجب أن يحدث، بل ما يحدث لكلّ مؤمن. من المهمّ اكتشاف هذا في كلّ رواية كتابيّة، والاحتفال به. لنأخذ على سبيل المثال نصّ النبيّ (أشعيا ٤٣: ٢١ – ٦١) حيث يُظهر هذا النصّ أنّ القراءة الربّانيّة ملازمة للكتاب المقدّس نفسه: «هكذا قال الربّ، الفاتح في البحر طريقاً، وفي الحياة الطاغية مسلكاً، المُخرِج المركبات والخيل والعسكر وذوي البأس، فيضّجعون ولا يقومون، وخمدوا وكفتيلة انطفأوا: لا تتذكّروا الأوائل ولا تتأمّلوا القدائم. هاءنذا آتٍ بالجديد، ولقد نبت الآن أفلا تعرفونه؟ أجعل في البرّيّة طريقاً وفي القفر أنهاراً. يمجّدني وحش البرّيّة، بنات آوى وبنات النعام، لأنّي أجعل مياهاً في البرّيّة، وأنهاراً في القفر لأسقي شعبي، مُختاري. الشعب الذي جبلته لي، فهم يحدّثون بمجدي».

كُتب هذا النصّ عندما كان الشعب اليهوديّ منفيّاً في بابل، وفيه يعلّم النبيّ أشعيا شعبه من خلال ثلاث أفكار ومقاطع متتابعة:

١ - يذكّر أوّلاً رواية الخروج العظيمة، أي عبور البحر الأحمر، لكن دون ذكر تفاصيل كثيرة وبهدف إثارة مشاعر المنفيّين فقط؛ ثمّ يُضيف أنّه لا حاجة لإعادة تذكُّر هذا الحدث: «لا تتذكّروا الأوائل ولا تتأمّلوا القدائم» (آية ١٨)، ويُضيف حالاً: «هاءنذا آتي بالجديد» (آية ١٩). ذكر النبيّ أشعيا حادثة قديمة ليساعد الشعب على الإقرار أنّ الأمر نفسه يتكرّر اليوم: «آتي بالجديد، ولقد نبت الآن أفلا تعرفونه؟» (آية ١٩ ب). هذا بالذات هو الأسلوب المتّبع في القراءة الربّانيّة: نروي رواية قديمة لنُظهر أنّ هذا الحدث هو حدث حاضر فعلاً.

٢ - الفكرة الثانية عند النبيّ أشعيا هي مثال على قراءة الكتاب المقدّس: «أجعل في البرّيّة طريقاً وفي القفر أنهاراً... لأسقي شعبي، مُختاري. الشعب الذي جبلته لي، فهم يحدّثون بمجدي» (١٩ - ٢١). فالنبيّ لا يستعمل الكتاب المقدّس كنصّ أخلاقيّ، بل يروي بكلمات تُلقي ضوءاً على الحاضر. فهو يساعد على فهم ما يحدث في هذه اللحظة مع شعبه.

٣ - المقطع الثالث في النصّ يروي من جديد الحدث القديم، لنفهم الحاضر والمستقبل. فالنصّ القديم يُقرأ بطريقة جديدة تماماً.

هذا مثال واضح للقراءة الربّانيّة من النبيّ أشعيا. نفس الأمر يحدث اليوم. عندما نقرأ الكتاب المقدّس قراءة صحيحة، يُصبح الكتاب المقدّس ليس مجرّد كتاب من الماضي، بل من الحاضر. فنحن نستعمل لغة الكتاب المقدّس في القراءة الربّانيّة ثمّ نتكلّم عن الحاضر بلغة لاهوتيّة جديدة. نتكلّم عن حاضرنا بلغة الكتاب المقدّس، عالمين أنّه يتكلّم عن الحاضر وعن المستقبل. وهذا يتطلّب معرفة الكتاب المقدّس ومعرفة ما يحدث اليوم. لا يتعلّق الأمر إذاً برسالة أخلاقيّة، فالقراءة الربّانيّة هي قراءة الحاضر بلغة الكتاب المقدّس. لا توجد قراءتان مختلفتان، فالقراءة الربّانيّة قراءة شاملة يصبح فيها الماضي والحاضر متلازمين؛ هو رواية غنيّة للقيم التي تأتينا من التقليد.

منهجيّة ومراحل القراءة الربّانيّة

الفصل الثالث

منهجيّة ومراحل القراءة الربّانيّة

ننطلق من وصفنا لمنهجيّة ومراحل مسيرة القراءة الربّانيّة من نصّ سفر تثنية الاشتراع: «... الكلمة قريبة منك جدّاً، في فمك وفي قلبك لتعمل بها» (٣٠: ١٤).

فكلمة الله نقرأها بالفم، ونصلّيها في القلب، ونتأمّل بها لنمارسها. وللقراءة الربّانيّة نفس هدف الكتاب المقدّس: «فهي قادرة على أن تجعلك حكيماً فتبلغ الخلاص بالإيمان الذي في المسيح يسوع» (٢ طيم ٣: ١٥).

القراءة الربّانيّة هي الأسلوب الأفضل لقراءة الكتاب المقدّس، فهي صلاة من الكتاب المقدّس ومع الكتاب المقدّس.

نستخدم في تقديمنا لمراحل مسيرة القراءة الربّانيّة المخطّط الكلاسيكيّ للتقليد الآبائيّ والرهبانيّ، المبنيّ على المخطّط الكتابيّ، مع التشديد على بعض النقاط التي توحيها الممارسة الراعويّة التي تبلورت على مدى سنين طويلة، من خبرة أشخاص وجماعات كنسيّة ورهبانيّة.

المرجع المتعارف عليه لمنهجيّة القراءة الربّانيّة هو رسالة الراهب الكرتوزيّ جويجو Guigo إلى صديقه جرفازيو Gervasio، بعنوان: «سُلَّمُ الرهبان» أو «في الحياة التأمّليّة»، يقول:

بينما كنت منهمكاً في العمل اليدويّ، أخذت أفكّر في نشاط الإنسان الروحيّ، فتبادرت إلى ذهني وتفكيري أربع درجات روحيّة: القراءة Lectio، والفهم (التفكير) Meditatio، والصلاة Oratio، والتأمّل

Contemplatio. هذا هو السلّم الذي بواسطته يرتفع الراهب من الأرض إلى السماء. درجات هذا السلّم قليلة، إلاّ أنّها تبلغ من العلوّ حدّاً يفوق الوصف. قاعدة هذا السلّم منغرسة في الأرض، وقمّته تخترق الغيوم وتسبر أسرار السماء».

ينطلق مؤلّف هذه الرسالة من نصّ إنجيليّ يدور حول الصلاة جاء في إنجيل متّى (٧: ٧)، يعرض من خلاله المراحل المختلفة لطريقته:

«اسألوا تُعطَوا، اطلبوا تجدوا، اقرعوا يُفتح لكم».

ويُعلّق مؤلّف الرسالة على كلام يسوع:

«ابحثوا بالقراءة، تجدوا بالتفكير، اقرعوا بالصلاة، يفتح لكم بالتأمّل».

وهكذا يختصر الراهب طريقته في أربع مراحل: القراءة، والفهم (التفكير)، والصلاة، والتأمّل. ثمّ يواصل موضحاً فكرته:

«القراءة تبحث، والفهم (التفكير) يجد، والصلاة تطلب، والتأمّل يتلذّذ ويتذوّق. تحمل القراءة، نوعاً ما، طعاماً دسماً إلى الفم، والتفكير يمضغه، والصلاة تشمّ رائحته الزكيّة، والتأمّل هو الحلاوة التي تعطي فرحاً وتشحذ القوى. تبقى القراءة على السطح، بينما يدخل التفكير في القلب، والصلاة تدفع إلى الطلب، والتأمّل يمنح التلذّذ بالحلاوة التي تمّ الحصول عليها».

يعلّق بيانكي E. Bianchi على هذا بقوله:

«اطلبوا الروح القدس، تحصلوا على القدرة للقراءة».

أي النور للدخول في رسالة كلمة الله.

يتّضح ممّا سبق أنّ عمليّة التنشئة على القراءة الربّانيّة عمليّة ديناميكيّة وواحدة، تجمع بين القراءة والفهم والصلاة وتأمّل كلمة الله. يؤكّد الراهب جويجو:

«القراءة بدون تأمّل عمليّة جامدة، والتفكير بدون القراءة يؤدّي إلى الضلال، والصلاة بدون تفكير فاترة، والتأمّل بدون صلاة غير مثمر. الصلاة الحارّة تؤدّي إلى التأمّل، بينما موهبة التأمّل بدون الصلاة نادرة وعجيبة».

الباب الواسع الذي من خلاله ندخل إلى هذه العمليّة، هو الدعاء إلى الروح القدس.

المراحل الثلاث الأولى: القراءة والتفكير والصلاة، مراحل أساسيّة، وتكوّن الجهد الشخصيّ للمؤمن الذي يريد الاتّصال بكلمة الله. وهذه المراحل الثلاث للجميع على حدّ سواء، للمثقّف ولغير المثقّف وللإنسان العاديّ. الجميع بدون استثناء بحاجة إلى نفس الأسلوب لاستيعاب كلمة الله.

يظهر حضور الله في العالم، بحسب التقليد اليهوديّ، من خلال التوراة، كلمة الله، ويدخل الإنسان إلى هذه الكلمة من خلال القراءة والفهم والصلاة. وهذه المراحل الثلاث هي أيضاً في التقليد المسيحيّ المراحل الأولى والأساسيّة للقراءة الربّانيّة.

ننتقل الآن إلى وصف كلّ مرحلة من مراحل القراءة الربّانيّة، بعد أن نقدّم نبذة عن استدعاء الروح القدس، العمل الأوّل الذي يسمح بأن نفتح بطريقة سليمة الكتاب المقدّس.

١. إستدعاء الروح القدس

إستدعاء الروح القدس هو الخطوة الأولى في مسيرة القراءة الربّانيّة، هو الصلاة التي تطلب النور الضروريّ للتقدّم من كلمة الله ولفهمها. إنّ هذا الروح القدس هو نفسه الذي ألهم وأرشد تأليف الكتاب المقدّس، وهو يساعد اليوم على فهم ما يكشفه الله للمؤمن الفرد أو لجماعة شعب الله.

إذاً، في كلّ مرّة نفتح فيها الكتاب المقدّس، فرديّاً أو جماعيّاً، يجب

البدء دائماً بالدعاء إلى الروح القدس، لأنّ القراءة الربّانيّة ليست تفسيراً علميّاً للكتاب المقدّس، مع أنّها تلجأ إلى هذا التفسير وتستخدمه، بل هي نعمة من الروح القدس. هذا الروح هو الملهِم والمفسِّر الحقيقيّ للكتاب المقدّس. هو الذي يُدخل في أُلفة مع الروح القدس، هو فقط يعرف غنى محتوى الكتاب المقدّس، وعمق حكمة الله.

يمكن الدعاء إلى الروح القدس بكلمات عفويّة أو بالاستعانة ببعض آيات المزمور ١١٨، الذي هو أفضل مزمور يساعد على سماع كلمة الله، ومن ثمّ للقراءة الربّانيّة.

كانت الصلاة إلى الروح القدس عند آباء الكنيسة، العمل الأوّل للدخول إلى الكتاب المقدّس، لأنّ الكلمة تصبح حيّة فقط عندما ندخل في شركة مع الروح القدس المقيم والساكن فيها.

كان القدّيس أفرام السريانيّ يعطي النصيحة التالية لمن كان يسأله عن كيفيّة قراءة الكتاب المقدّس:

«صلِّ قبل القراءة، واطلب من الله أن يكشف لك نفسه».

ويقترح كاتب مسيحيّ سريانيّ آخر، يوسف بوسناي، الصلاة التالية:

«قل لي، يا ربّ، كلمة الحياة والفرح من خلال فم ولسان الكتاب المقدّس. وأعطني أن أسمعها بآذان داخليّة متجدّدة، وأن أترنّم بمجدك بلسان الروح القدس».

وكان القدّيس يوحنّا فم الذهب يصلّي عند فتحه الكتاب المقدّس:

«افتح، أيّها الروح القدس، عيون قلبي لأفهم وأتمّم مشيئتك.[...] نوّر عينيّ بنورك».

الروح القدس هو الذي يفتح عقل المؤمن ويرشد قلبه خلال سماعه للكلمة. والروح القدس، مؤلّف الكتاب المقدّس، هو وحده يستطيع أن يكشف الأسرار المخفيّة، ويسبر عمق الوحي، ويعمل على اكتشاف خطّة

الله الخلاصيّة في التاريخ (١ كورنتس ٢: ١٠). هو الذي يعلن صوت الإنجيل الحيّ في الكنيسة ويُدخل إلى ملء الحقيقة (الوحي الإلهيّ ٨).

الروح القدس، إذن، الذي عمل في الكتّاب الملهَمين والإنجيليّين في الماضي، يعمل اليوم في من يقرأ الكلمة، التي تثمر فقط إذا كان الروح القدس يُحيي من يقرأ.

يقول القديس غريغوريوس الكبير إنّه كما أنّ الروح القدس اختار وهيّأ أنبياءَ في الماضي، كذلك يقيم ويرشد الأنبياء في الزمن الحاضر:

«الروح القدس الذي مسّ قلوب الأنبياء يمسّ روح القارىء».

الروح القدس هو وحده عامل النموّ، إنّه يحيي الكنيسة من الداخل ويدفعها إلى الأمام. إنّ الروح القدس نفسه الذي حلّ على مريم وعلى الرسل في علّيّة صهيون، هو نفسه يحلّ على كلّ محبّ للكلمة وكلّ تلميذ لها.

عديدة هي مفاعيل استدعاء الروح القدس. فالصلاة إلى الروح القدس، تستبعد أوّلا احتكار كلمة الله وتفسيرها تفسيراً شخصيّاً واعتباطيّاً يقود إلى نكران حقيقة واقع كلمة الله في الكنيسة. زد على ذلك، إيجابيّاً، أنّ الدعاء إلى الروح القدس يخلق في القارىء الذي يصلّي أمام الكتاب المقدّس، التجرّد من الذات، وطهارة القلب، والارتداد إلى الكلمة، والانقياد لها. إنّها عواطف تحرّره لأن يقبل أفكار الله بكلّ حبّ.

تولّد الصلاة إلى الروح القدس أيضاً روح التواضع العميق، وتجعلنا نقترب من النصّ الكتابيّ بحسّ مقدّس، وسجود خاضع ووداعة أمام السرّ. هي ثمرة التوافق بين الإرادة البشريّة وعمل الروح القدس. كلّ هذا يتطلّب جوّاً من الصمت، ووقفة تأمّل، وهي استعدادات أوّليّة لقراءة الكتاب المقدّس، ستساعد لاحقاً على تحضير مشروع حياة مبنيّ على كلمة الله، كمرجع أساسيّ لروحانيّة مسيحيّة ولنعمة التمييز التي يهبها الروح القدس.

٢. القراءة

ماذا تقول كلمة الله بحدّ ذاتها؟

القراءة هي المرحلة الأولى في مسيرة القراءة الربّانيّة. تخلق القراءة بين المؤمن والكتاب المقدّس نوعاً من الألفة والانسجام، وتصبح كلمة الله كلمتنا القادرة على أن تعبّر عن حياتنا وعن تاريخنا (١ كور ١٠: ١١).

قراءة كلمة الله ليست عمليّة سطحيّة، بل تتطلّب انتباهاً وإصغاءً، لأنّ الهدف منها ليس تعميقاً أو تطبيقاً، بقدر ما هو إصغاء وقبول لكلمة الله باستعداد وتهيّؤ كامل.

والقراءة تتمّ في يقين الإصغاء إلى شخص: شخص حيّ يتكلّم، وهو الله نفسه. في القراءة – يقول القدّيس إيرونيموس – «افتح الأشرعة للروح القدس».

ماذا تعني قراءة نصّ من الكتاب المقدّس؟

تعني أن نقرأ النصّ ونعيد قراءته عدّة مرّات، وبصوت مرتفع، معلّمين بالقلم الكلمة أو الجملة أو الفكرة التي أثارت الإعجاب أو لفتت الانتباه. كما تعني إظهار الأقسام الأكثر أهمّيّة في النصّ: المحتوى والأشخاص والبيئة والمشاعر أو العواطف، والصور والرموز، وديناميّة الأحداث، والنصوص المتشابهة والنصوص المشتركة. باختصار، أن نعرف كيف «نقرأ الكتاب المقدّس مع الكتاب المقدّس».

كما يعني ذلك طرح بعض الأسئلة على النصّ: من هم الأشخاص الرئيسيّون والثانويّون؟ ما هي الأحداث ذات المعنى للكاتب؟ أين ومتى تجري الأحداث؟ ما هي الصور والرموز التي استُعملت؟ ما هي الرسالة التي أراد الكاتب إيصالها لمعاصريه في ذلك الوقت؟

الكتاب المقدّس، كتاب يجب «البقاء معه» والعمل فيه «دون تسرّع.

الأمانة والمثابرة توصلان تدريجيّاً إلى فهم النصّ واكتشاف التجدّد المستمرّ الذي تحتويه كلمة الله.

هذه المرحلة من القراءة، إذن، هي مرحلة التفتيش عن المعنى الحرفيّ – التاريخيّ لنصّ الكتاب المقدّس، مع المحافظة على احترام النصّ. والقراءة ليست هدفاً بحدّ ذاتها، بل يجب أن تهدف إلى إدخال كلمة الله في حياة المؤمن وإلى الحوار الذهنيّ معها. ويمكن الاستعانة في هذا الجهد، حسب متطلّبات القارىء وظروفه، ببعض النصوص الكتابيّة – الآبائيّة أو الإزائيّة، أو بتعليق كتابيّ بسيط على النصّ. فالاستعانة بدليل يساعد على البحث عن معنى النصّ بشكل جدّيّ.

إنّ ما يساعد على الدخول إلى معنى النصّ وعلى بدء حوار مع الله هو القراءة المتيقّظة للكلمة، والمتّحدة بخبرة الحياة. يقول البابا بولس السادس في ذلك: «أن يُعمّق فهم نصّ «في ذلك الزمان» بخبرة «هذه الأيّام»، من خلال إقامة نوع من التجانس بين احتياجات اليوم ومعطيات النصّ المقدّس، هو شرط يسمح لنا أن نسمع كلمة الله فعلاً».

تساعد القراءة بهذه الطريقة على تكوين نظرة واضحة وأكيدة لقراءة الحياة في ضوء مخطّط الله، وعلى تخطّي عقليّة التعلّق بالمعنى الحرفيّ للكتاب المقدّس.

ولاختيار نصوص القراءة الربّانيّة، يمكن الاستعانة بالنصوص الليتورجيّة. يتّفق التقليد المسيحيّ على الأسلوب الذي تتّبعه الكنيسة في الليتورجيّة، كقاعدة للقراءة الربّانيّة، بحيث إنّ استعمال القراءات الليتورجيّة، يتجاوب مع وظيفة تحضير وتعميق الإصغاء الليتورجيّ إلى كلمة الله.

إلاّ أنّه يبدو أنّ الأسلوب المفضّل للقراءة الربّانيّة هو القراءة المتتابعة لكلّ الكتاب المقدّس، كتاباً بعد كتاب، دون حذف الآيات الصعبة والتي تبدو قليلة الأهمّيّة، (لأنّها هي أيضاً ضروريّة لاستيعاب كلّ سياق الوحي،

ولتربية المؤمن على العلاقة الصحيحة مع كلمة الله). على كلّ حال، يجب التذكير أنّ القراءة الكتابيّة تتطلّب وقتاً محدَّداً، ومثابرة يوميّة، وأمانة دائمة. لا يمكن ترك القراءة الربّانيّة لأوقات متقطّعة، وكمادّة لتعبئة وقت فراغ من أوقات النهار. وبما أنّه عمل مهمّ ومصيريّ للنموّ في الحياة المسيحيّة، فهو يتطلّب نوعاً من التقشّف والنظام، ووقتاً محدَّداً والتزاماً جادّاً في مسيرة الحياة الروحيّة.

يجب أن تتمّ القراءة الربّانيّة باستعمال جميع الطاقات: الشفاه تُلفظ الكلمات، وتُثبّت في الذاكرة، وتُفهم بالعقل، وتمارَس بالإرادة.

كان آباء الكنيسة يقولون باستمرار إنّ أيّ نصّ كتابيّ، تتمّ معرفته تماماً، ويُحفظ غيباً، ويصبح عمليّاً عندما يعاد تكراره يوميّاً.

«عندما يبدأ الإنسان بقراءة الكتاب المقدّس – يقول القدّيس أمبروسيوس – يبدأ الله بالتنزّه معه في الجنّة الأرضيّة».

٣ . الفهم

ماذا تقول لي كلمة الله؟

بعدما أدخلتنا القراءة في أُلفة مع النصّ الكتابيّ، لدرجة أنّه أصبح «كلامنا نحن»، نصل إلى المرحلة الثانية في مسيرة القراءة الربّانيّة، وهي مرحلة الفهم أو التفكير «التي لا تبقى في الخارج أو على السطح، بل تسير إلى الأعلى، وتدخل في الأعمق، وتسبر كلّ الخصوصيّات».

يقول كاسيانو Cassiano: «إن دخلنا في منطق الأحاسيس التي تمّت كتابة النصّ الكتابيّ بها، نصبح نحن المؤلّفين، إلى حدّ ما».

الفهم هو الوقت الذي فيه يكلّمنا الله، لذلك علينا أن نصمت، ونرهف السمع: «سأسمع إلى ما يقول الربّ» (مزمور ٨٥: ٩).

الفهم يلفت الانتباه إلى الجهد الذي يُبذل لوضع النصّ موضع التطبيق، وإدخاله ضمن نطاق حياتنا وواقعنا الشخصيّ أو الاجتماعيّ.

فالنصّ الذي كُتب من أجلنا، يجب أن «يتكلّم معنا»: «استمرار طبيعيّ وضروريّ للقراءة، ويفترض أن أعرف كيف أخلق في قلبي مساحة تدوّي فيها كلمة الله، وتتعمّق فيّ وتجعل منّي مكتبة حيّة». هذا ما طلبه الله من النبيّ حزقيال: «جميع الكلام الذي أكلّمك به خذه في قلبك واسمعه بأذنيك» (حزقيال ٣: ١٠).

الفهم هو البحث عن القيمة الدائمة للنصّ، وهي الحقيقة المخفيّة التي يجب اكتشافها وتفعيلها. الفهم هو البحث عن نكهة كلمة الله، لا العلم أو المعرفة؛ هو التفتيش عن وجه المسيح وراء كلّ كلمة. هو هضم كلمة الله بحيث تنطبع في داخلنا. الفهم هو إغلاق العيون أمام الربّ، ومواجهة الحياة مع النصّ، وتوضيح المشاعر والمواقف التي تنبعث من كلمة الله. ولنا في ذلك مثال العذراء مريم، التي بقيت، نهاراً وليلاً، تردّد وتفكّر وتبحث لتفهم كلمة الله. ثمّ مثال الرجل الحكيم في الإنجيل (لوقا ٢: ١٩ – ٥١). يقول القدّيس أوغسطينوس، إنّه «يجب اجترار النصّ، ومضغه في الفم، قبل إدخاله إلى القلب، وإظهاره في الحياة». (راجع أيضاً حزقيال ٣: ١ – ٣).

في التقليد الروحيّ، يمرّ الفهم في ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: هي تحديد سريع للرسالة الرئيسيّة في النصّ الذي هو موضوع الفهم. ثمّ ربط هذه الرسالة مع سرّ المسيح الذي تتوحّد حوله كلّ النصوص المقدّسة. المطلوب هو تحديد النقطة المركزيّة، التي ستنفتح لاحقاً على نصوص أخرى مماثلة، والتي ستقود ذاكرتنا الكتابيّة إلى توحيد الكلّ، كي يتمّ إحراز الثمار الروحيّة الأولى.

عندما يتكلّم آباء الكنيسة عن هذه النقطة يستعملون مَثَل النملة التي تلتقط الطعام وتضعه على حدة، ويستعملون في ذلك الفعل اليونانيّ Synaghien (= يجمع، يضع معاً).

المرحلة الثانية: يتمّ فيها اختيار أفكار تمّ جمعها في المرحلة السابقة. كان الأقدمون يستعملون صورة النحلة التي تعمل لتصنع العسل، ويدعون هذه العمليّة meletan من فعل meletao (= يعمل العسل). يقول: Guerrico d'Igny

«أنتم أيا من يتسلّقون درجات الكتاب المقدّس،
يجب ألاّ تمرّوا عليها بسرعة وبنوع من الإهمال.
أحفروا كلّ كلمة لتُخرجوا منها الروح.
تمثّلوا بالنحلة العاملة التي تجمع من كلّ زهرة عسلها».

من هذه المرحلة يتمّ جمعُ الكلمة التي زُرعت في المرحلة السابقة وحفظُها في أرض طيّبة، في القلب، فيُسهَر عليها بمحبّة، تاركين بكلّ ثقة المجال للربّ كي يعمل هو فيها.

المرحلة الثالثة: هي مرحلة المواجهة، عندما تصبح الكلمة التي تمّ استيعابها نوراً وقوّة تضيء الحياة وتوجّهها بكلّ ثبات نحو الله. أو إنّها كما يقول آباء الكنيسة، مرحلة إخراج البذور من القشور؛ وكانوا يستعملون كلمة Synkrisis من فعل Krinein (= يقشّر). وهنا تكون المواجهة عملاً داخليّاً، يتمّ بها في داخل النفس، ويشعر الإنسان الذي يفكّر في كلمة الله، بمفعول نار تُدفىء قلبه وتوجّهه في طريق اختبار الله.

إحدى الطرق العمليّة والبسيطة في عمليّة الفهم هي طرح أسئلة على النصّ: ما هي الفكرة والقيمة الأساسيّة للنصّ؟ لماذا هذا النصّ مهمّ بالنسبة لي؟ ماذا يقترح عليّ أو كيف يحثّني؟ في أيّة شخصيّة من شخصيّات النصّ أجد نفسي؟ ما هي المواقف والمشاعر التي ينقلها إليّ؟ كيف أستطيع بهذه الأفكار تنوير حياتي؟ المطلوب هو العمل على إدخال كلمة الله في صميم القلب، ومن ثمّ تجنيد كلّ الطاقات لمواجهة الذات مع هذه الكلمة، ومن ثمّ الدخول في الكلمة والرجوع إليها.

والنصّ الذي يتمّ مضغه مطوّلاً بهذه المواجهة الشخصيّة، يجب أن يستمرّ المؤمن في ترديده طيلة اليوم، جاعلاً كلمة أو جملة من النصّ تدوّي في داخله، ويردّدها في غمرة أعماله اليوميّة. وهكذا يساعدنا الفهم على قطف «المعنى الروحيّ»، أي المعنى الذي يريد روح الله أن يوصله اليوم إلينا وإلى كنيسته من خلال النصّ الكتابيّ.

كان كاسيانو يقول إنّ الحصول على فهم النصّ يتمّ عندما تصبح كلمة الله خبرة حياة:

«ما نشعر به يسمح لنا بعدم الاقتراب من النصّ كأنّه كلمات تُسمع فقط، بل كأمر نختبره ونلمسه باليد؛ لا كقصّة خارجيّة وغير معروفة، بل كأمر يُشعل أعماق قلبنا، ويخصّ المشاعر التي تؤلّف جزءاً من كياننا. نكرّر: ليست القراءة هي التي تُدخلنا في معنى الكلام، بل الخبرة المكتسبة مسبّقاً من خلال الحياة اليوميّة».

وهنا أيضاً يساعدنا الفهم على تعميق البعد الشخصيّ لكلمة الله. فإنّ الكلمة الملفوظة تكتسب قيمة ليس فقط بالنسبة للفكرة التي تتضمّنها، بل بالنسبة للشخص الذي يلفظها وإلى الطريقة التي يشهد بها لها. في تأمّل كلمة الله، يتّسع قلبنا حتّى يفهم قلب الله نفسه، لأنّ الروح يعمل في داخل الكتاب المقدّس (راجع ٢ تيمو ٣: ١٦) ويساعدنا على اكتشاف المعنى الكامل لكلماته (راجع يوحنّا ١٦: ١٣).

٤. الصلاة

ماذا أقول للربّ بواسطة كلمة الله؟

يتمّ الانتقال من الفهم إلى الصلاة، عندما يصبح واضحاً لنا ماذا يطلب الله منّا. نسأل بعفويّة: «ماذا أريد أن أقول لله ؟». هذا هو وقت الدعاء.

فالصلاة تعني أن نجيب على الله بعد أن نكون قد سمعناه، وأن نقول «نعم» لإرادته ولمخطّطه علينا. يقول القدّيس أوغسطينوس: «**صلاتك هي محادثتك مع الله. عندما تقرأ الكتاب المقدّس، يتكلّم الله معك؛ وعندما تصلّي، تتكلّم أنت مع الله**».

إكتشفنا بالتفكير ماذا يقول لنا الله خفية في ضميرنا. والآن علينا أن نردّ على كلمته بالصلاة. بمعنًى آخر، بعد أن دخلت كلمة الله في عالمنا الداخليّ، تعيدها الصلاة إلى الله تحت شكل دعاء أو نداء.

الصلاة، هي الفترة التي فيها نتّحد بالشعور الدينيّ الذي يوحيه ويوقظه النصّ في داخلنا. فكلمة الله التي أصبحت صلاة، تصبح بالنسبة لنا سبب مديح وشكر ودعاء وثقة وتوبة وبركة. يقول القدّيس أوغسطينوس أيضاً: «**إذا كان النصّ صلاة، فصلّوا؛ وإذا كان أنيناً، فإنّوا؛ وإذا كان عرفان جميل، فكونوا فرحين؛ وإذا كان نصّ أمل ورجاء، فارجوا؛ إذا كان يعبّر عن مخافة الله، فخافوا. فإنّ الأمور التي تشعرون بها في النصّ الكتابيّ هي مرآة أنفسكم**».

الصلاة هي إعادة الكلمة التي أعطانا إيّاها الله إليه. كان القدّيس أمبروسيوس يقول: «عندما نصلّي، فنحن نكلّم الله؛ عندما نقرأ الكتاب المقدّس نسمع له».

في القراءة الربّانيّة، تنمو فترة الصلاة على شكلين: من خلال ما يمكن تسميته «الصلاة المركّبة» أو «الصلاة المبسّطة».

يتمّ التعبير عن الشكل الأوّل بالشكر والمديح والاحتفال، ومن ثمّ بالتواضع والطلب. فالإشارة الحقيقيّة أنّنا نقوم بالقراءة الربّانيّة، هي عندما نتوصّل مع كلمة الله إلى التسبيح والاحتفال بالربّ كشخص حيّ في حياتنا وكياننا، كما في الآخرين.

ونصل إلى الشكل الثاني عندما نتحقّق أنّ الصلاة تقودنا إلى أمر في غاية البساطة، من خلال مسيرة تحملنا أوّلاً على التركيز على عدد قليل

من كلمات النصّ، ومن ثمّ، توحّد صلاتنا، بما فيها من مشاعر التسبيح والتواضع والطلب والشكر، والثقة وغيرها، لأنّ كلّ ذلك ينصهر في حوار عميق مع الله.

وعلى كلّ واحد أن يجد طريقته الخاصّة في الصلاة، سواء بالتركيز على الصمت أو على السمع أو القدرة على الاندهاش أو الإيمان.

يجب أن يغذّي كلّ واحد باستمرار، من خلال صلاته، عالمه الثقافيّ والفيسيولوجيّ والروحيّ، وأن يكتشف ذاته، وكيفيّة الاتّصال مع الله ومع الآخرين.

وفي هذه المسيرة، الروح القدس وحده يستطيع أن يرسم في عمق القلب، الطريق التي تقرّب من كلمة الله التي نحن مدعوّون إلى عيشها.

يجب ألاّ ننسى أنّ إله الصلاة هو إله الخلاص وهو إله الحياة. في هذا الضوء لا يمكن أن تكون الصلاة خبرة منفصلة عن الحياة أو عملاً منفرداً. لا يوجد صلاة من جهة وحياة من جهة أخرى. نحن نصلّي ما نعيش ونحبّ الله من خلال أوضاعنا والأمور المحسوسة والواقعيّة التي نعيشها.

تحويل كلمة الله إلى صلاة يعني أن نعكس أنفسنا في الواقع المعاش من خلال الكتاب المقدّس، هذا الواقع المؤلّف من أفراح وأحزان، من انتصارات وانكسارات، وأن نواجهه مع إرادة الله.

الصلاة تعني أن نطلب من الله، بثقة بنويّة وبثبات، القوّة لكي نقوم بواجباتنا ونتحمّل أوضاعنا كما يريد الله، وأن نرغب بالفعل في الحصول على ما نطلب. فنحن لا نستطيع أن نصل إلى صلاة متجسّدة وإلى عمل معاش بعمق روحيّ، طالما يوجد شرخ بين الصلاة والعمل. فقط من يحبّ بشكل حقيقيّ يستطيع أن يحوّل كلّ واقع الحياة صلاة، لأنّ الصلاة هي بداية العمل؛ أن نصلّي لا يعني فقط التعبير عن عواطف، بل البحث عن إرادة الله والعمل بها بكلّ كرم وفرح.

٥. التأمّل

ما هي العطايا التي أنالها وما هي الثمار الروحيّة التي أجتنيها؟

يمكننا في القراءة الربّانيّة أن نتوقّف عند مرحلة الصلاة، لأنّ كلّ صلاة هي تأمّل. إلاّ أنّه في موضوع القراءة الربّانيّة، تصبّ الصلاة في التأمّل، كتتويج وثمرة طبيعيّة له، في الوقت الذي يتمّ تذوّق كلمة الله في القلب.

ليس التأمّل مجرّد تقنيّة أو أمراً مضافاً من الخارج، بل هو عطيّة من الروح القدس، ينبع من خبرة قراءة ربّانيّة جيّدة: التأمّل هو معرفة الله واختباره في القلب، إنّه تركيز تأمّليّ على سرّ الله. عن هذا يتكلّم الرسول يوحنّا في إنجيله: «الحياة الأبديّة هي أن يعرفوك أنت الإله الحقّ وحدك ويعرفوا الذي أرسلته يسوع المسيح» (يوحنّا ١٧ : ٣).

إذا كانت القراءة والفهم والصلاة هي الفترة العمليّة للقراءة، أي تلك التي تتطلّب تعاوننا وجهدنا، وأمانتنا اليوميّة لكلمة الله، فالتأمّل هو فترة الفراغ الخاصّة، التي نترك فيها المبادرة لله.

لا يمكن أن نصل إلى التأمّل بواسطة مجهود شخصيّ أو تمرين إرادة؛ التأمّل هو وليد صلاة طويلة متمركزة حول كلمة الله. وثمرة هذا التأمّل هو حضور الربّ، الذي يثير فينا الاندهاش والتعجّب، وهو أيضاً نظرة صافية للواقع بعينَي البسطاء، وبملء الإيمان والفرح والسلام. الألفة مع الله عميقة وحقيقيّة، حتّى وإن كانت على مستوى الإيمان، وتطلّبت الصمت، لأنّه لا مجال لقول أيّ شيء. عندها يُدخلنا الله للتأمّل في سرّه، سرّ الآب والابن والروح القدس.

التأمّل يعني أن ننسى الأشياء الهامشيّة وأن نهتمّ بالأساسيّ والجوهريّ، فنكتشف بقلبنا حياتنا الشخصيّة، ونكتشف سرّنا أمام سرّ الله بنظرة البساطة والسجود، بمعرفة واختبار الله الآب الذي يحبّنا كأبناء. نشعر بالحاجة إلى أن ننظر فقط إلى يسوع، وأن نستريح فيه، وأن نقبل محبّته لنا، وأن نقبل ملكوت الله في داخلنا واثقين أنّنا اختبرنا الله.

التأمّل هو النظر بعين الإعجاب، في صمت، إلى سرّ الله – الآب، وسرّ المسيح – الصديق، وسرّ الروح القدس – المحبّ.

التأمّل هو الاكتشاف الصافي الشفّاف لحقيقة الله. وهذه هي ميزة البسطاء وأطهار القلوب وفقراء الله. وهي ليست ثمرة موهبة خاصّة، أو جهد مضاعف أو انخطافات. المهمّ هو أن نترك لروح الله المجال ليعمل فينا، عارفين أنّه عطيّة من الآب الذي هو محبّة.

التأمّل، الذي هو نتيجة القراءة الربّانيّة، هو وضع من يدخل في عمق الأحداث ليكتشف ويتذوّق حضور كلمة الله العاملة فيها والخلاّقة. وهو أيضاً، وضع من يلتزم بعمليّة التغيير التي تحقّقها كلمة الله في داخل التاريخ البشريّ.

التأمّل يحقّق ويضع كلمة الله موضع التنفيذ، جاعلاً منها خبرة لذيذة، تسبق الفرح «الذي أعدّه الله للذين يحبّونه» (١ كور ٢ : ٩).

عند هذه النقطة، تنتقل أمور المؤمن وانشغالاته الشخصيّة إلى الدرجة الثانية مقابل الاختبار الموضوعيّ للتأمّل، الذي يجب أن يوصل بالضرورة إلى الممارسة والتبشير، وإلى المحبّة التي هي خدمة على مثال العذراء مريم، وإلى لقاء مع كلّ كائن بشريّ لنوصل إليه الله وحضوره، وكلّ قيم الحياة الإنسانيّة والروحيّة الكبرى. عندئذٍ تصبح القراءة الربّانيّة «التي وصلت إلى عتبة الرؤيا، إسكتولوجيّة (أخرويّة)، وتحضر إلى اللحظة النهائيّة التي هي مجيء المسيح، عندما يصبح التأمّل أمراً لا ينتهي. تعطي القراءة الربّانيّة تلك الثمرة التي تعجّل مجيء المسيح النهائيّ والأخير، وتُنبىء به».

يجب أن نتذكّر، بعد أن وصلنا إلى نهاية وصف مسيرة القراءة الربّانيّة بمراحلها الأربع حسب النظرة الكلاسيكيّة، أنّ هذا الوصف ليس مجرّد مخطّطٍ لممارسة جامدة بدون إمكانيّة التحرّك الحرّ، أو المبادرات الشخصيّة الخلاّقة. يقول الكادينال مارتيني: «التقسيم ضروريّ لمن هو في البداية،

أو لمن يريد العودة إلى هذا التمرين. وصلاتنا هي كخيط بارز يربط بين أيّام الأسبوع. يمكن أن نطيل المكوث في نفس النصّ يوماً كاملاً، وخصوصاً بالتفكير، بينما نعبر بسرعة في يوم آخر إلى التأمّل».

هذا يعني أنّه بعد مدّة من التمرّن على القراءة الربّانيّة، نستطيع أن نطيل التوقّف في المرحلة التي نشعر بالحاجة إليها أكثر من غيرها، متذكّرين دائماً أنّ كلمة الله، كي تصبح صلاة، يجب أوّلاً أن تُفهم وأن تواجه حياتَنا الخاصّة. كلّ محبّ للكتاب المقدّس، وكلّ من يدخل في هذه المسيرة، يصبح قادراً أن يفهم وحده ما تحتاجه نفسه.

نريد، كخلاصة لهذا الوصف المرحليّ للقراءة الإلهيّة، أن نستشهد بفكرة إ. بيانكي، الذي يُنهي تقديمه لنفس الموضوع قائلاً:

«لقد تحقّقنا أنّ المؤمن الذي يتبع هذا الأسلوب، ويطبّقه حسب متطلّباته الخاصّة، يشبه رسّام الإيقونات.[...] رسم إيقونة هو القيام بقراءة ربّانيّة مرئيّة، مترجمة إلى صور، لأنّه من خلال الرسم، كما من خلال النصّ، يَظهر قليلاً قليلاً، وجه المسيح المليء بالنور والمجد الذي نراه في التأمّل».

٦. التطبيق

من القراءة الربّانيّة الفرديّة إلى القراءة الربّانيّة الجماعيّة

مع القراءة الربّانيّة الفرديّة، هناك أيضاً القراءة الربّانيّة الجماعيّة، أو المشاركة في الكتاب المقدّس.

ليس سماع كلمة الله عملاً فرديّاً فقط، إذ إنّ له بالضرورة وجهاً جماعيّاً. فالقراءة والفهم والصلاة نشاط فرديّ وجماعيّ. ومشاركة ما تقوله كلمة الله لكلّ واحد هو غنىً يجب أن لا نهمله أو نقلّل من قيمته، بل أن نتقاسمه، لأنّه يوضح البعد الكنسيّ للكتاب المقدّس، ويحمل الجماعة

على أن تنمو معاً في معرفة وقبول الذات والآخرين، والتقدّم في الإيمان وفي الحياة الروحيّة.

يقول القدّيس أثناسيوس في كتابه (حياة القدّيس أنطونيوس): «تكفي الكتب المقدّسة لتعليمنا، ولكن حسن جدّاً أن نعظ بعضنا البعض على الإيمان وأن نرشد بعضنا بعضاً بالكلام». لذلك من المهمّ أن تُقرأ كلمة الله ويُفكَّر فيها وتُصلّى ليس فقط بشكل فرديّ، بل، وبالخصوص بشكل جماعيّ.

ما هي القراءة الربّانيّة الجماعيّة أو المشاركة؟ هي السماع الجماعيّ للربّ من خلال كلمته. فبينما يبحث كلّ أخ أو أخت عن بنيان نفسه أو جماعته، يعبّر بكلّ صراحة وبساطة قلب عن مواقفه الخاصّة من الكلمة المسموعة التي استوعبها وكانت موضوع صلاته الشخصيّة.

الهدف من القراءة الربّانيّة الجماعيّة هو تحقيق نوع من الحوار بين أشخاص التقوا، في جوّ من الصمت المنصت، في حضرة الله الذي يكلّمنا من خلال الكتاب المقدّس، لنصل بمساعدته إلى تحويل هذه الكلمة إلى صلاة.

هناك بالطبع بعض الشروط المطلوبة لكي يستطيع كلّ واحد أن يشترك في هذا الحوار الجماعيّ، على سبيل المثال: التوزيع إلى مجموعات صغيرة من سبعة إلى تسعة أشخاص، الاستعداد للتعلّم وقبوله عندما يأتي من الآخرين، قبول وانفتاح نحو كلّ أخ أو أخت، وتجنّب أيّ موقف نقد أو حكم مسبّق تجاههم، الاقتناع أنّ كلّ مؤمن يملك الروح القدس، وبالتالي، يمكن أن يكون الوساطة التي يستعملها الله لينير حياة الآخرين.

هذه الاستعدادات شروط لا بدّ منها كي نهيّئ بسهولة جوّاً حقيقيّاً للتفكير بكلمة الله، فنصل إلى الهدف الأخير للمشاركة، الذي هو البنيان المشترك للإيمان، والنموّ في المحبّة الأخويّة والتعزية في الرجاء.

في مثل هذه الحوارات المشتركة بين المؤمنين، يجب إبعاد كلّ أنواع المجادلات والمناقشات التي من شأنها أن تُفقد هذه الاجتماعات صفتها الخاصّة كقراءة ربّانيّة جماعيّة، تبحث عن الله وتبادل خبرات الإيمان بين الإخوة والأخوات، ومعرفة وفهم حكمة كلمة الله التي تعمل على بناء ملكوت الله في ذاتنا وفي الآخرين.

يعطي القدّيس باسيليوس نصائح مهمّة وثمينة للذين يبحثون عن المشاركة في كلمة الله:

«تكلّمْ بعد معرفة الموضوع؛ إسأل دون الرغبة في الجدال؛ أجب دون تكبّر؛ لا تقاطع من يتكلّم ويقول أشياء مفيدة؛ لا تتدخّل بروح التعالي؛ كن متّزناً في الكلام وفي السماع؛ تعلّم دون أن تخجل؛ علّم دون انتظار منفعة شخصيّة؛ لا تُخفِ ما تعلّمته من الآخرين».

إنّها كلمات حكيمة تعكس خبرة حياة وتُظهر بعض السلبيّات التي يجب تجنّبها أثناء الاشتراك في حديث عامّ، كالرغبة في إثبات الذات وفرض الأفكار الخاصّة، والتفتيش عن الكلمات العلميّة الصعبة، وإظهار البراعة الشخصيّة في عرض الأفكار من خلال أسئلة صعبة وقليلة الأهمّيّة، مغلقين بذلك الطريق أمام حكمة كلمة الله الحقيقيّة، ومحبطين قلوب البسطاء الذين لا يملكون ثقافة وعلماً كافيين.

من الطبيعيّ أن تتعرّض المشاركة الأخويّة في كلمة الله إلى بعض المخاطر، خصوصاً لمن هم مبتدئون في هذا المجال، كسطحيّة العرض، والعاطفة الدينيّة الطبيعيّة، والخوف من عرض فكر خاصّ، وإخفاء الشخصيّة تحت ستار الصمت أو التعبير عن فكرة ما بهدف لفت النظر، أو الالتجاء إلى العلم الواسع للهدف عينه. هذه المصاعب، يجب أن لا تُوقف هذه الممارسة الدينيّة التي اعتبرها آباء الكنيسة ذات فائدة كبيرة للنموّ الروحيّ في الجماعة المؤمنة. كما يجب التذكير أنّ المشاركة الجماعيّة تعطي نتائج جيّدة إن كان الحوار الأخويّ يتغذّى بكلمة الله ويصبح نتيجة خبرة شخصيّة لحياة روحيّة توضع في خدمة الآخرين.

ما هو الأسلوب الذي يجب اتّباعه في عمليّة المشاركة الجماعيّة في كلمة الله؟ سنقترح، استناداً إلى خبرة نضجت عبر سنين من ممارسة القراءة الربّانيّة الجماعيّة في بيئات مختلفة ومع أشخاص مختلفين، تفصيلاً من ستّ مراحل متتالية يجب الالتزام بها، حتّى بوجود شخص محرّك للصلاة، يقوم بإحياء وتسهيل حُسن سير الأمور.

١) يبدأ اللقاء بصلاة أو دعاء عفويّ – إن أمكن – إلى الروح القدس، من قِبل أحد أعضاء المجموعة، وبكلمات بسيطة، تدعو الحاضرين إلى سماع كلمة الله، وقبول عطايا الروح القدس، لكي يحضر ويساعد الجماعة على تقاسم كلمة الله، وعلى الاتّحاد الصادق بين جميع المشتركين.

٢) يفتح القارىء الكتاب المقدّس بهدوء وانتباه، ويعلن كلمة الله، مع القناعة أنّه يسمع شخص الربّ نفسه. وبالطبع فالنصّ الذي قرأته الجماعة قبلاً بشكل فرديّ يصبح الآن موضوع إعلان جماعيّ.

٣) تتبع قراءة كلمة الله، فترة قصيرة من الصمت والتفكير، نظراً إلى أنّ النصّ معروف وسبق التأمّل فيه مسبّقاً بشكل فرديّ. فالصمت هو وسيلة اتّصال، تسهّل لاحقاً قبول واستيعاب النصّ الكتابيّ، وتنير القلوب وتوحّدها، وتدمجها في فلك الروح القدس.

٤) وفي قلب المشاركة، يقوم المشاركون، واحدٌ بعد الآخر، بإيصال وبثّ كلمة الله المسموعة في صميم القلب، استناداً إلى عبارة أو جملة من النصّ نفسه. ويتمّ توضيح الكلمة بمواجهتها بخبرة حياة شخصيّة هادئة، هدفها مساعدة الآخرين على التحقّق من أنّ الكلمة تتكلّم وتنتقد وتردّ وتحثّ. المطلوب هو إيصال خبرة نابعة من الالتقاء بكلمة الله.

٥) عندما يُعطى المجال للجميع لكي يعبّروا عن ذواتهم ويشاركوا في تفكيرهم، يبدأ الحاضرون بالصلاة. وهنا يمكن التعبير من خلال أشكال الصلاة المختلفة: مديح، شكر، رجاء، طلب، توبة، ثقة... ولكن دائماً بشكل دعاء للربّ، مع استعمال نفس كلمات النصّ الكتابيّ. هذا الأمر من شأنه أن يساعد الجميع على الألفة مع كلمة الله، والحصول على لغة وصلاة كتابيّة.

٦) وقبل أن نغلق الكتاب المقدّس، يؤخذ مقصد واقعيّ، وينتهي الاجتماع بأشكال مختلفة، حسب متطلّبات وحسّ كلّ جماعة: صلاة شكر جماعيّة، أو ترنيمة تناسب موضوع المشاركة، أو عبارة أو جملة أساسيّة للنصّ المتأمّل فيه، يلتزم المشاركون بترديدها أثناء نهارهم.

تمّ سابقاً الإشارة إلى وجود شخص يُحيي ويدير القراءة الربّانيّة الجماعيّة. وهنا يجدر التنويه، أنّ وجود مثل هذا الشخص، ليس ضروريّاً فقط لإدارة خبرة المشاركة، وإنّما يمكن أن يساعد على تهيئة الجوّ والمكان الذي يتمّ فيه اللقاء. يجب أن يكون مكان الاجتماع غرفة ملائمة، مرتّبة، مع وجود كراسيّ بشكل دائريّ، لكي يتسنّى لجميع المشتركين أن يروا بعضهم بعضاً. كما يمكن أن يساهم في إنجاح خبرة المشاركة، استعمال بعض الإشارات الملائمة، التي تساعد على خلق جوّ من الخشوع والاتّحاد الأخويّ، كالكتاب المقدّس مفتوحاً أو شمعة مضاءة أو وردة أو إيقونة تحمل على التأمّل والصلاة.

الثمار والعطايا الروحيّة للقراءة الربّانيّة

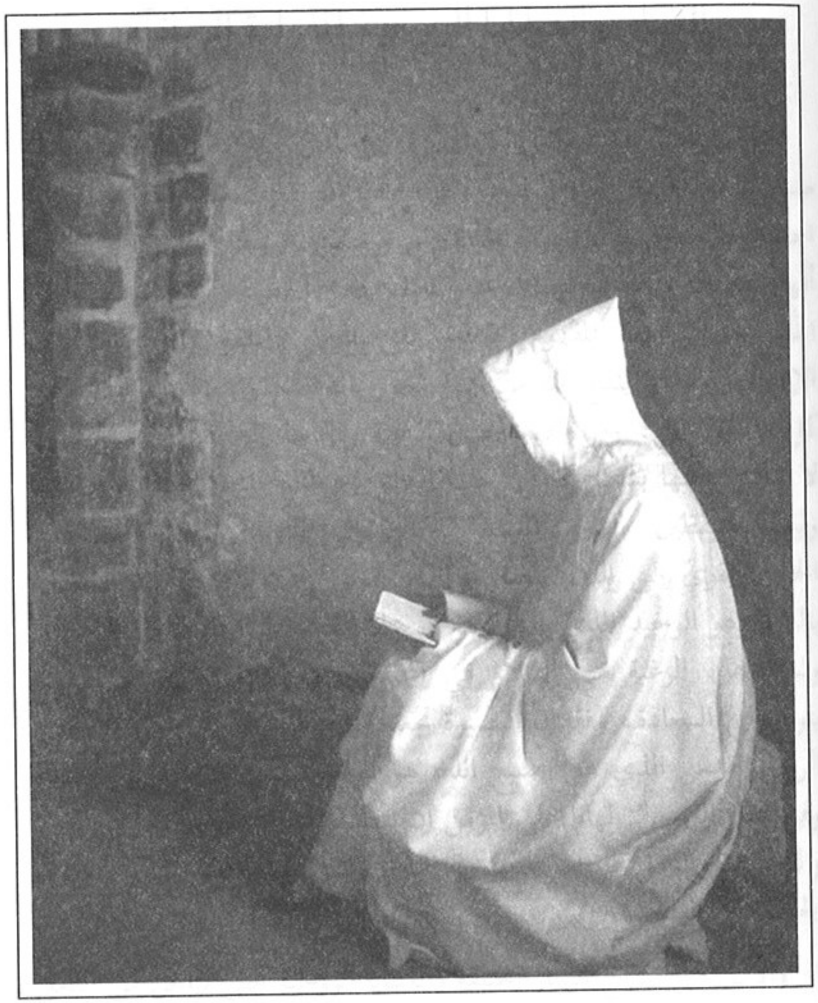

الفصل الرابع

الثمار والعطايا الروحيّة للقراءة الربّانيّة

أحد عناصر القراءة الربّانيّة المميَّزة هو تأمين روحانيّة خاصّة، وعلاقة مستمرّة مع خبرة الحياة المسيحيّة. فإن أردنا أن نقطف ثمار القراءة الربّانيّة الصحيحة، يجب أن تكون الحياة هي مرجعيّتنا. ويمكن اعتبار الحياة على أنّها انفصال ورغبة: انفصال عن العالم وعن الخطيئة، ورغبة عميقة في الله. ويرتكز هذا المفهوم للحياة على الوعي الملموس والمُعاش لفقر الإنسان، والذي ينتج عنه من جهة شعور بالتواضع وابتعاد عن الشرّ وعن كلّ ما هو زائل، ومن جهة أخرى الرغبة والحاجة إلى الله، وهي حاجة لا يمكن تلبيتها بشكل كامل. حبُّ العالم يُحبطنا، بينما حبّ الله يحفزنا ويُبقينا متيقّظين. الشعور المستمرّ بالحاجة إلى التوبة يحمل المؤمن على الحنين القويّ إلى الله، بينما التواضع يقوّي رغبة الإنسان في الاتّصال بالله، وهو الوحيد الذي باستطاعته أن يملأ الفراغ المتواجد داخل الإنسان. وثمرة هذه الرغبة هي السلام في المحبّة، هي الحبّ. فالإنسان بطبيعته يتوق إلى السعادة، وفقدان البصيرة تجعله متزعزعاً ميّالاً إلى أمور الأرض. الروح القدس الذي هو «إصبع الله» هو الوحيد الذي يشاركه في عطاياه وفي غناه الروحيّ. لهذا على المؤمن أن يتهيّأ للالتقاء بالله من خلال الزهد والتصوّف والتأمّل في سرّ المسيح، التأمّل الذي هو خضوع للروح وثمرة الحكمة لا العلم.

والآن لكي نشرح الثمار المختلفة والعطايا الروحيّة التي تتدفّق من التأمّل في كلمة الله، سنتوقّف عند أكثرها أهمّيّة، أي تلك التي تنبُع من التأمّل

في وجه المسيح، من خلال مبادرة محبّة الله المستمرّة إلى ما هو عمليّ في حياتنا.

١. الثمار الروحيّة للقراءة الربّانيّة

* التعزية

الثمرة الروحيّة الأولى للقراءة الربّانيّة هي التعزية، هي مفهوم خاصّ بالعهد الجديد (التعزية أو العزاء: راجع روما ١٢، ٨؛ ١٥، ٤؛ ٢ كور ١، ٣١) وهي واقع أساسيّ في الخبرة المسيحيّة. التعزية هي تنويرٌ تأمّليُّ النزعة يُثمر فرحاً داخليّاً وتذوّقاً لكلّ ما هو كلام الله، واستمتاعاً بالحقيقة وبالله. من يختبر ثمر الروح هذا يحيا في ميدان النور ويشعر أنّ الحبّ يخترقه، ويُدرك أنّ كلمات الكتب المقدّسة سماويّة وتحوي قوّة حياتيّة قادرة على التغيير. ويكشف هكذا أنّ الكتاب المقدّس قوّة عميقة تخلق الخير في العمل. فهو كتاب التعزية وكتاب الفرح والرجاء إبّان الصعوبات وتجارب الحياة. وتُعطي كلمة الله ثمار السلام الداخليّ وصمت القلب والهدوء الذي هو ضبط النفس وعدم التعلّق بما هو زمنيّ، والصفاء والسكينة في الأمور الحياتيّة اليوميّة.

يؤكّد بولس الرسول كلّ ذلك لأنّه اختبر في حياته هذه الثمار الفائقة الطبيعة لكلمة الله: «فإنّ كلّ ما كُتب قبلاً إنّما كُتب لتعليمنا حتّى نحصل على الرجاء، إذا ما حصلنا على ما أتت به الكتب من الصبر والعزاء» (روما ١٥: ٤).

إستطاعت الكنيسة من خلال ثمر الروح هذا أن تتخطّى المِحَن والاضطهادات. فبواسطة التعزية استطاع الشهداء والقدّيسون والمرسلون والشاهدون للإنجيل ومؤسّسو الحركات الرسوليّة أن يقاوموا الصعوبات الكثيرة، ويحتملوا التعب ويقوموا بأعمال فائقة الطبيعة، لا تستطيع الطبيعة البشريّة وحدها أن تصل بها إلى كمالها. من يحصل على هذا الثمر الروحيّ يختبر حنان الله حتّى في عمله اليوميّ الاعتياديّ الذي لا لذّة خاصّة فيه. فالتعزية هي انسجام ما هو فطريّ ومطابق لقواعد الطبيعة،

مع القيم الإنجيليّة التي تتكامل في الإنسان الذي يقبل من المسيح هذا الثمر الروحيّ، «هذا التديّن» كما يسمّيه القدّيس فرنسيس دي لا سال، الثمر الذي يعطي الحماس والقوّة الداخليّة والذي يقاوم كلّ أنواع المِحَن والتجارب التي تأتي من العالم الذي هو عدوّ الله.

* التمييز الروحيّ

التمييز الروحيّ هو الثمرة الثانية من ثمار الروح، وهو الذي يدعوه الكتاب المقدّس (Discretio) أي المقدرة الداخليّة للتمييز بين عمل الله وعمل الشرّير. هو فهم لمكان وجود الخير والشرّ. هو تقبُّل فطريّ لإرادة الله في ظروف الحياة العمليّة واليوميّة، لا سيّما في القرارات المهمّة التي يجب اتّخاذها في الحياة. التمييز هو ذلك الإحساس الروحيّ والفطريّ الذي يدعوه القدّيس بولس» عطيّة تمييز الأرواح» (راجع ١ كور ١٢: ١ – ١١) والتي هي ضروريّة خصوصاً لمن يحمل مسؤوليّة تجاه الآخرين: «يتطلّب التمييز الحقيقيّ ثلاثة عناصر في الشخص: النظر، أي وجود الرغبة في إيجاد الله؛ الفهم بالقلب أي الانفتاح على وسائل الاتّصال بالله؛ التوبة أي التحلّي بحسن الطويّة، والتخلّي عن التفكير الشخصيّ، مع الوعي للفقر الداخليّ. هذه العناصر الثلاثة هي مواقف إيمانيّة، يعبَّر عنها بوضوح لكي ننتقل من التمييز إلى الاختيار.

ينصبّ مُجمل تعليم يسوع لتلاميذه في إمكانيّة الاختيار بين الخير والشرّ، أي في تمييز الأرواح. عمله وحياته ذاتها هما ثمر قوّة الروح وثمرة هزيمة الشيطان. فهو يدعو الإنسان بكلمته إلى قبول رسالة الحياة (راجع روما ١٢: ٢). وعلى كلّ تلميذ إذاً أن يوافق حياته مع حياة المسيح وأن يقبل تعليمه (راجع لو ٢: ٣٤؛ ٢٠: ١٨). حضوره فينا يجب أن يُثير التمييز والاختيار الموجّهَين دوماً إلى الخير وإلى خدمة الإنسان. وهكذا يُصبح التمييز موقفاً روحيّاً يتحقّق في المسيح بواسطة الروح القدس. إنّه الروح الذي «يعلّم كلّ شيء» (١ يو ٢: ٢٧). ومن يثبت في الروح من خلال خبرة داخليّة، يستلم منه تعليماً ومسحة داخليّة وهداية لضميره.

* إختيار الحياة المؤسَّس على الإنجيل

التفكير Deliberatio واختيار الحياة المؤسَّس على الإنجيل هما الثمرة التي تلي التمييز. فكلّ اختيار مسيحيّ، وكلّ خيار في الحياة الرهبانيّة، بنذورها ووعودها، ينشأ ويُزهر كعمل الروح القدس، من التوافق الروحيّ مع المسيح. فالربّ هو الذي يحرّك القلوب أوّلاً، وما على الإنسان إلاّ أن يتجاوب معه بحرّيّة. يرتكز دوماً الاختيار الإنجيليّ الحقيقيّ على الحياة في الروح، الذي يقود إلى وعي عميق وتشابه مع المسيح. وفي عكس ذلك لا يمكن التكلّم عن خيار إنجيليّ حقيقيّ.

إذا كان التمييز يساعدنا على رؤية الخير والشرّ، ومعرفة أين يعمل روح الله وأين يعمل روح العالم، ويهدينا للتمييز بين ما هو أساسيّ وما هو ثانويّ، ما هو مُطلق وما هو نسبيّ، فإنّ التفكير deliberatio هو عطيّة الروح التي تمنح القوّة لتحقيق الاختيار، للسير في طريق الحياة الصحيحة، ولأخذ الخطوة الأولى نحو التشبّه بحياة المسيح. نحن نعرف غالباً أن نميّز بين الخير والشرّ، ولكنّنا نفتقر إلى القوّة لنعمل بتطابق مع الخيار المسيحيّ للحياة. فمن الذي يمنحنا القوّة لتخطّي الصعاب والمحن ويوجّهنا بعزم نحو المسيح؟ وحده الحبّ العميق لكلمة يسوع المسيح وتعاليمه، والمترجَم واقعيّاً في خدمة القريب ومحبّته، يساعدنا على السير في طريق الخير حسب إرادة الله.

* العمل في الروح

ثمرة أخرى للروح هي العمل، أي العمل الإنجيليّ الذي ينجم عن الاختيار المسيحيّ الواقعيّ. فالحياة المعاشة بالروح تصبح من خلال الشخص الذي يحياها بُشرى وتعليماً. فغاية التأمّل ليست فقط قراءة كلمة الله ومعرفتها، بل تطبيقها وعيشها: «طوبى لمن يسمع كلمة الله ويحفظها» (لو ١١: ٢٨). الكلمة الإلهيّة والحياة مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً. كان القدّيس غريغوريوس يركّز على أن نفهم ونستوعب في داخلنا كلّ ما نقرأ. لا بل كان يقول إنّه ينبغي، عندما نقرأ الكتاب المقدّس، أن يصبح ما نقرأه في

الكتاب عامل تغيير داخليّ فينا. يجب خلق ترابط بين الكتاب المقدّس والحياة. إذا كانت كلمة الله المقدّسة تاريخ خلاص، فحياة الإنسان الروحيّ المؤسّسة على الكلمة هي استمراريّة ونضوج لهذا الخلاص. الروح الذي هو في الأساس ملهِم ومحرِّك مسيرة الخلاص، يعمل أيضاً في كلّ مؤمن ويعينه على عيش مختلف مراحل الخلاص، ويقوده نحو المسيح «في طاعة الإيمان» (روما ١٦: ٢٦). وانطلاقاً من الكلمة التي تصبح حياة يمكن الوصول إلى التشبّه بالمسيح وإلى اكتشاف ما يقوله القدّيس بولس «لست أنا الذي يحيا بل المسيح يحيا بي» (غلاطية ٢: ٢٠؛ فيليبّي ١: ٢١). فقد استطاع بولس التشبّه بالمسيح وبكلمته إلى حدّ أنّه يقول لإخوته في الإيمان: «اقتدوا بي كما أقتدي أنا بالمسيح» (١ كو ١١: ١).

هكذا يجب أن تكون شهادة التلميذ الحقيقيّ بالمسيح: التشبّه بالمسيح إلى درجة يستطيع أن يقول معه لإخوته بكلّ تواضع: «انظروا ماذا فعل بي الربّ، أنا نهجت هذه المسيرة، اعملوا أنتم أيضاً تشبّهاً بي في المسيح مع كلمة الله». هذه الخبرة التي عاشتها الكنيسة الأولى، هي ذاتها خبرة القدّيس بولس ورسل المسيح العديدين في تاريخ الكنيسة. العمل هو التطابق مع المسيح، التوافق مع شخصه. التصرّف المسيحيّ هو إذاً أن نحيا الكلمة باستقامة واستمرار ومحبّة. بعبارة أخرى يدفعنا العمل بالروح إلى محبّة القريب. فالمؤمن الذي أصبح رسولاً للكلمة الإلهيّة يُصبح تأمّليّاً في العمل، لأن العمل الإنجيليّ ينشأ من الصلاة، والعمل ينشأ من الكينونة، أي ممّا نحن عليه أمام الله.

٢. العطايا الروحيّة للقراءة الربّانيّة

* الحكمة وتجوين* الكلمة

إقتناء حكمة الله وتجوين كلمة الله هما العطيّة الأولى التي تنبع من الممارسة الأمينة للتأمّل. ويؤكّد ذلك ما ورد في دستور «الوحي الإلهيّ».

* أي وضع الذات أمام الكلمة، والنظر إلى الذات من خلال كلمة الله.

يقول المجمع الفاتيكانيّ الثاني: «يحرّض المجمع المقدّس تحريضاً ملحّاً جميع المسيحيّين لا سيّما مَن كان منهم عضواً في الجمعيّات الرهبانيّة، أن يُدركوا معرفة المسيح السامية» بالمواظبة على قراءة الكتب الإلهيّة» (الوحي الإلهيّ ٢٥). فالتأمّل في الواقع ليس دراسة الكتاب المقدّس أو عملاً ثقافيّاً بل لحظات صلاة حقيقيّة، وبحث حكيم عن الكلمة الإلهيّة التي تقود من خلال حوار الصلاة إلى عيش خبرة شخصيّة مع الله.

نجد في كتابات آباء الكنيسة رؤية ملهَمة حول هذه النقطة، فهم يرَون في الكتاب المقدّس أنّ ابن الله والروح القدس يتفاعلان في القارىء المؤمن. ففي كلمة الله يبحثان عن الحكمة المسيحيّة التي تسكن في الإنسان، ويكتشفان حبّ الله الخلاصيّ، ذلك «التنازل» الذي يتكلّم عنه القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم والذي جعلنا أبناء الله من خلال ابنه. فالحكمة هي الوقوف على القيمة العميقة والدائمة للحقيقة. لا ينطلق التأمّل من مبادىء عامّة بل من نصّ بسيط يحرّك الذكريات ويحمل على التأمّل وعلى الصلاة وعلى التمييز. كلّ هذا هو حياة وهو حكمة. وهذا يتحقّق من خلال المخيّلة لا العقل. هو بصيرة القلب وخبرة التوبة التي تقود إلى العمل. إلى هذا يجب أن يقود الكتاب المقدّس. لا ننسَ أنّ شعب الله بمجمله يتحلّى بقدرة لاهوتيّة عميقة وبالحكمة التي من خلالها ينقاد إلى عمل الروح. وهذا يسهّل اقتناء الحكمة ويساعد البشر على انتظار اللحظة التي تتّصل فيها الحكمة مع السلام الداخليّ.

الغاية التي إليها تتوق حكمة المؤمن هي أن يصل إلى الجوّانيّة، إلى صلاة القلب، علماً بأنّ خبرة الصلاة تتمّ في أعماق الإنسان، وهو المكان الذي يسكنه روح الله (روما ٨: ٩). يستلم المؤمن حقّاً هذه العطيّة، فيبلغ إلى الصلاة التأمّليّة، كفعل إيمان ومحبّة، ومن خلاله يضع نفسه في حالة إصغاء إلى الله. وفي مسيرة التجوين هذه التي تقود إلى الاتّحاد الكامل مع الله، يستطيع الإنسان أن يفهم بطريقة أفضل تدرّج التأمّلات الخارجيّة واستعمال منهجيّة الصلاة، حينها يدرك معنى الصلاة كعلاقة مع الله

الحيّ. أن يعيش في حضور الله ليحصل في الصمت والنظر والتأمّل على العلاقة الحقيقيّة مع الله بجميع مستوياتها الأخلاقيّة والروحيّة. وفي إطار هذه الخبرة الديناميكيّة للصلاة نكتشف علاقة الـ «أنا – أنت» كمكان للّقاء الروحيّ، ووسيلة للاتّصال الحقيقيّ والحياة والنموّ الحقيقيّ في البُعد الروحيّ. هكذا نحيا الصلاة بالروح، لأنّه أُعطيَت لنا المقدرة على التفكير والإصغاء. وهنا تولد كلمة الله في قلب الإنسان. لا يستطيع الإنسان أن يتعمّق في كلمة الله بل كلمة الله هي التي تستولي عليه وتغيّره وتؤهّله ليكتشف أسرارها.

تجوين كلمة الله التي تصبح صلاة هو عمل، أي موهبة كنسيّة، لم توضع في أيدي مفسّري الكتاب المقدّس فقط بل في قلوب المؤمنين الذين ينقادون إلى روح الله.

*** تركيز الحياة على ما هو جوهريّ**

عطيّة ثانية تنبع من القراءة الربّانيّة هي توجّه المؤمن إلى تركيز حياته على ما هو أساسيّ وجوهريّ، متجاوزاً ما هو ثانويّ. الاتّصال بكلمة الله يُدخل شعب الله في الروحانيّة المسيحيّة الأصيلة، التي ترتكز على اللقاء الشخصيّ والجماعيّ مع المسيح الفصحيّ. الغاية هي المعرفة أنّ التأمّل هو لحمة كلّ حياة الكنيسة الروحيّة، كما هو أساس كلّ روحانيّة. كلّ روحانيّة لا تجد مركزها في كلمة الله تؤول إلى السقوط، والمسيحيّ الذي يريد أن يتقدّم في مسيرة الخبرة مع الله، يحتاج إلى إيمان ناضج، إيمان لا يُبنى على عواطف تقويّة والتزامات غير منتظمة، بل على علاقة مستمرّة وعلى ألفة مع كلمة الله المُصلاّة والمعاشة.

كذلك يعلّم آباء الكنيسة بوجود أشخاص كثيرين لا يملكون عطيّة الروح والتمييز. لذلك نراهم يجهدون في الحياة الروحيّة دون الحصول على النتائج المرجُوّة. ويعود السبب في ذلك إلى أنّ هؤلاء المسيحيّين يعطون أهمّيّة للأمور الخارجيّة لأعمالهم أكثر ممّا يعطون للحقيقة العميقة والتي منها

يأتي ثمر الفضيلة الحقيقيّة. يبحثون عن الأمور الكبيرة والمميّزة بدلاً من أن يبحثوا عن الأمور الوضيعة التي تساهم في نموّ الحياة الروحيّة. يقول الكادينال مارتيني: «لا يستطيع المسيحيّ اليوم أن ينضُج في الإيمان، وأن يتجاوب مع متطلّبات العالم المعاصر، إن لم يتعلّم أن يمارس القراءة الربّانيّة بشكل من الأشكال». مواجهة أمور الحياة اليوميّة مع كلمة الله هي أجمل ما تتضمّنه الروحانيّة المسيحيّة، وهي تُعطي لمن كان أميناً أن يتيقّن أنّ الحقيقة والحكمة والتنوير هي التي تسمح بالدخول إلى عالم الله.

* تطابق الإيمان والحياة

عطيّة ثالثة للروح هي تربية المؤمن على التطابق بين الإيمان والحياة، لأنّ هدف التأمّل هو أن يحمل الإنسان إلى تجسيد إيمانه في حياته اليوميّة، وأن يساعده أمام الاختيارات الإنجيليّة القويّة، على المستوى الفرديّ أو الجماعيّ. إنّ غاية القراءة الربّانيّة بالنسبة لمن يمارسها هي بناء شخصيّته، متّخذاً من السيّد المسيح مرجعيّة لحياته على مستوى التفكير وعلى مستوى الحياة. هذه المرجعيّة التي تصبح بالتدريج أكثر وضوحاً وعمقاً، تساعد على تمييز حالة الخطيئة، والوقوف على حقيقة الذات، ورؤية التاريخ الشخصيّ كما يراه السيّد المسيح، والحكم على الحياة من منطق الإنجيل، الذي هو الاختيار والمحبّة والرجاء كما يعلّم السيّد المسيح، وعلى العيش، فيه، الشركةَ مع الآب ومع الروح القدس.

على هذا الأساس يبني الشخص ذاته في وحدة أساسيّة: يتمّم مسؤوليّته ويبحث عن المعنى الأخير لحياته. يستطيع المؤمن، وسط جماعة المؤمنين، أن يعيش إيمانه بحرّيّة، وأن يعلنه ويحتفل به بفرح في حياته اليوميّة، وأن يعمل على نضوج مواقفه الإنسانيّة التي تقوده إلى الانفتاح بصراحة على الحقيقة وإلى احترام وحبّ كلّ أخ. تساعد القراءة الربّانيّة على الصلاة بطريقة تجعلها متناغمة مع إيقاع الحياة اليوميّة ومع حياة الكنيسة.

* الإدراك الروحيّ لكلمة الله

رأينا أنّ أسلوب القراءة الكتابيّة يُبرز معنيَين كتابيَّين متميّزَين وغير منفصلين: المعنى الحرفيّ والمعنى الروحيّ. يتناول المعنى الحرفيّ المضمون البسيط للأحداث التي تمّت، وهو بمثابة الغشاء الذي يُخفي المعنى الأكثر عمقاً، كما أنّه يضع أسس الإيمان. أمّا المعنى الروحيّ فهو الذي يُدرَك عندما تصبح رواية الحدث والنصّ الإنجيليّ «روحًا» يقدّمه الروح القدس، وهو الذي يعزّز باستمرار الكلمة ومسيرة الإنسان في التاريخ. ويصبح هذا الفهم الروحيّ للكتب المقدّسة موضوع التأمّل والصلاة والحياة المسيحيّة، وهو يجد مجاله الطبيعيّ في القراءة الربّانيّة، التي تُعتبر الأسلوب الأمثل للحياة الروحيّة. لذا، فالقراءة الربّانيّة حدث دينيّ وإصغاء وخبرة لكلمة الله وعلامة خلاص وانتماء إلى الكنيسة.

القراءة الربّانيّة كتجسيد للمعنى الروحيّ للكتب المقدّسة، هي عطيّة روحيّة تقود المؤمن إلى علاقة صداقة مع الله واتّحاد به، كما أنها تحقيق كامل لتاريخ الخلاص. وتتمّ هذه الخبرة مع الله في إطار كتابيّ لأنّ موضوعها هو الروح وهو الذي يُحييها. هكذا ندرك أنّ الكتب المقدّسة في القراءة الربّانيّة ليست بهدف المعرفة أو العلم بل هي نبع خلاص. لا خلاص ذهنيّ بل حياتيّ، وهو المعنى الأعمق في التعامل الروحيّ للكتاب المقدّس، وفيه نجد الحقائق التي يجب أن نؤمن بها والشرائع التي يجب أن نعيشها.

وهكذا، بعد أن أوضحنا في مسيرتنا مع كلمة الله ثمار القراءة الربّانيّة وعطاياها، ندرك أنّ هناك اليوم ضرورة ملحّة لا يمكن إغفالها تقضي بإدراج القراءة الربّانيّة في عمل الكنيسة الرعويّ كمخطّطٍ متكاملٍ وواسعٍ، مؤسّسٍ على كلمة الله، مخطّط يساعدنا على التفكير في القضايا المهمّة في حياة الجماعة المسيحيّة، ويقودنا بالتالي إلى أن نحيا حياة مشتركة حول كلمة الله، التي هي المرجع الأوّل والمهمّ لبناء علاقة عميقة

مع الكتاب المقدّس. «برنامج يبدأ بـ «الاندهاش»، أي المواقف التأمّليّة التي تسبق قراءة النصّ المقدّس: إجلال، إصغاء، صمت، وسجود أمام السرّ الإلهيّ. أن نضع أنفسنا أمام الكتب المقدّسة كأنّنا أمام الله نفسه. وانطلاقاً من هذا البُعد التأمّليّ ينبغي تطوير مخطّط جماعيّ مبنيّ على كلمة الله كمرجع أوّل، والقيام بمبادرات واقعيّة تجعل القراءة الربّانيّة في متناول الجميع». هكذا نرى أنّ الكتب المقدّسة هي نسيج جوهر الحياة الروحيّة المسيحيّة للمؤمن. وهي جذور وأساس الحياة الروحيّة للكنيسة ككلّ، وليست حظراً على فئة مختارة من البشر. القراءة الربّانيّة هي جوهر المسيحيّة لأنّه قلبها. هو الكلمة، والكلمة هي يسوع المسيح الذي مات وقام لخلاص الجميع.

في النهاية، ما يهمّ الكنيسة ليس طريقة التقرّب من الكتب المقدّسة، بقدر ما هو معرفة الكلمة، صلاة الكلمة والتعلّم منها، والتخطيط للحياة والشهادة لها. هذا هو مختصر الحياة المسيحيّة. لا تستطيع روحانيّة مسيحيّة غير مؤسّسة على الكلمة المبتهلة والمعاشة أن تثبت في العالم المادّيّ والإنفرادي وغير الموجّه الذي نعيش فيه. إن أردنا كجماعة مسيحيّة أن نعمل ونثمر في حقل التبشير في عالم اليوم الذي رجع إلى حالة الوثنيّة، أي بدون قيم روحيّة، علينا أن نعود إلى كلمة الله، علينا أن نقود البشريّة إلى طريق الروحانيّة المتمحورة حول شخص يسوع المسيح. هذا ما يقوله الكاردينال مارتيني عن أهمّيّة القراءة الربّانيّة حياة الجماعة المسيحيّة: «أكرّر أنّي لا أجد وسيلة أكثر فعّاليّة من هذه (القراءة الربّانيّة) للكشف عن الوجه الحقيقيّ للعقليّة الجديدة التي نعيش فيها، لكي نعتاد على قراءة الأحداث كما يقرأها الله، ولكي نفتح قلبنا على الروح القدس الذي يقودنا إلى تقديم حياتنا إلى الآب في يسوع المسيح».

مراحل مسيرة القراءة الربّانيّة

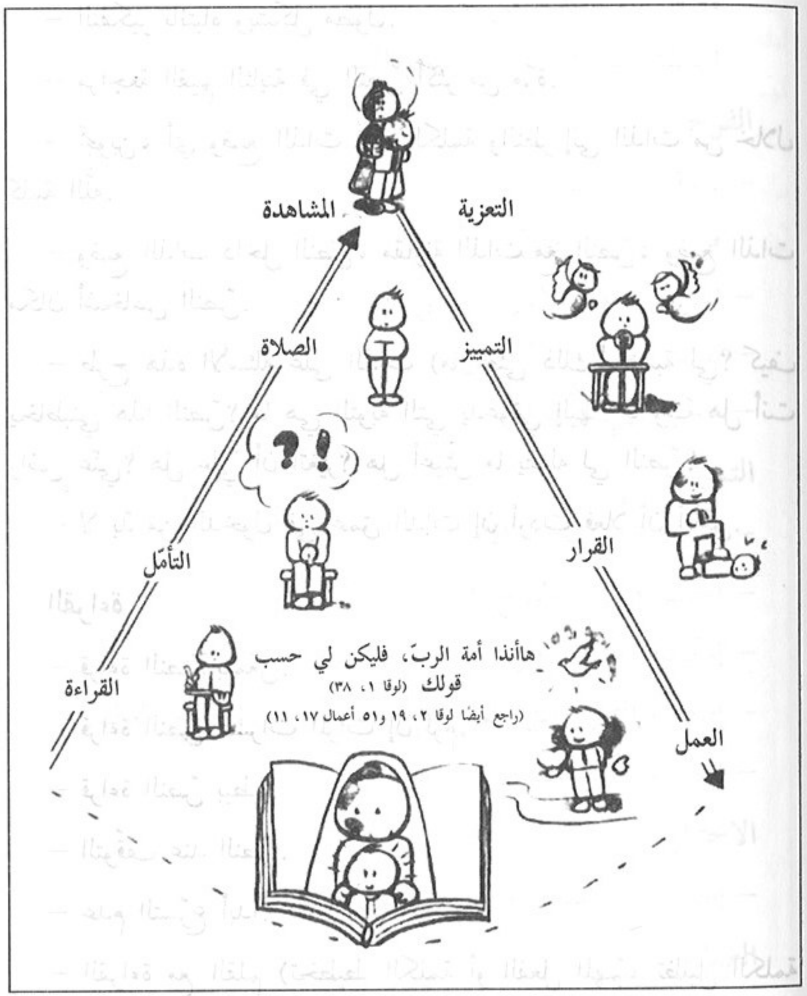

الصلاة

– التجاوب مع الله.

– صلاة الكلمة (أطلب المساعدة، أحمدك، أشكرك، أتضرّع إليك)

التأمّل

– التفكير بانتباه وبشكل مطوّل.

– مراجعة القيم الثابتة في النصّ أكثر من مرّة.

– تجوين، أي وضع الذات أمام الكلمة والنظر إلى الذات من خلال كلمة الله.

– وضع الذات داخل النصّ، مقارنة الذات مع النصّ، وضع الذات مكان أشخاص النصّ.

– طرح هذه الأسئلة على الذات (ما معنى ذلك بالنسبة لي؟ كيف يخاطبني هذا النصّ؟ ما هي التوبة التي يدعوني إليها؟ يا ربّ هل أنت راضٍ عنّي؟ هل عليّ أن أتغيّر؟ هل أعيش ما يقوله لي النصّ؟

– لا بدّ من الدخول في عمق الذات إن أردتُ فعلاً أن أتأمّل.

القراءة

– قراءة النصّ بتمعّن.

– قراءة النصّ عشرات المرّات إن لزم.

– قراءة النصّ ببطء.

– التوقّف عند النصّ.

– عدم التسرّع أبداً.

– القراءة مع القلم (تخطيط الكلمة أو الفعل المهمّ، تظليل الكلمة التي تخاطب أكثر من غيرها).

– إبراز دور الأشخاص في النصّ.

– التفكير في الظروف المحيطة بالنصّ.

– البحث عن النصوص الأخرى الموازية للنصّ في الكتاب المقدّس.

المشاهدة

– معرفة الله انطلاقاً من خبرة القلب.

– التركيز للدخول في سرّ يسوع المسيح.

الفرح

– تذوّق أمور الله.

– فرح وسلام داخليّ وهدوء في الحياة.

– تذوّق العمل والالتزام اليوميّ.

– تطابق مع المثال الإنجيليّ.

– شجاعة في الشهادة.

التمييز

– معرفة الواقع بعيون الإيمان.

– الحكم في نور الروح القدس.

– إمكانيّة اختيار الخير.

– إمكانيّة التمييز أين يعمل روح الله وأين يعمل روح العالم.

– إمكانيّة اختيار الطرق السليمة.

الاختيار

– إختيار ما يتناسب مع الإنجيل في حياتنا.

العمل

– طريقة عمل فعليّة في الروح القدس.

– الحياة المعاشة في الروح القدس تصبح شهادة وتبشيراً.

– التشبّه بالمسيح من خلال كلمته.

– العمل المستقيم في المحبّة.

هكذا نرى أنّ حياة الإنسان المسيحيّ المؤمن، دون ممارسة القراءة الربّانيّة، تصبح فقيرة وهزيلة، بعيدة عن الحياة ومحرومة من خبرة الروح القدس. بينما تجعل ألفة القراءة الربّانيّة تلميذَ المسيح رجلَ إيمان وشاهداً حقيقيّاً لكلمة الله، لأنّ الكلمة فيه حقيقيّة وحيّة ومتجدّدة، وتُظهر نفسها بشكل تدريجيّ لمن يبحث عنها بصدق ومحبّة وثبات في مختلف ظروف حياته. فهي تَدخل في جميع جوانب حياة الإنسان وتنمو بنسبة دخول الإنسان في عالم كلمة الله. وهي نبع للإيمان وللتصرّف المسيحيّ السويّ وللحياة الروحيّة والرسوليّة للمؤمن.

نصائح مفيدة لممارسة القراءة الربّانيّة

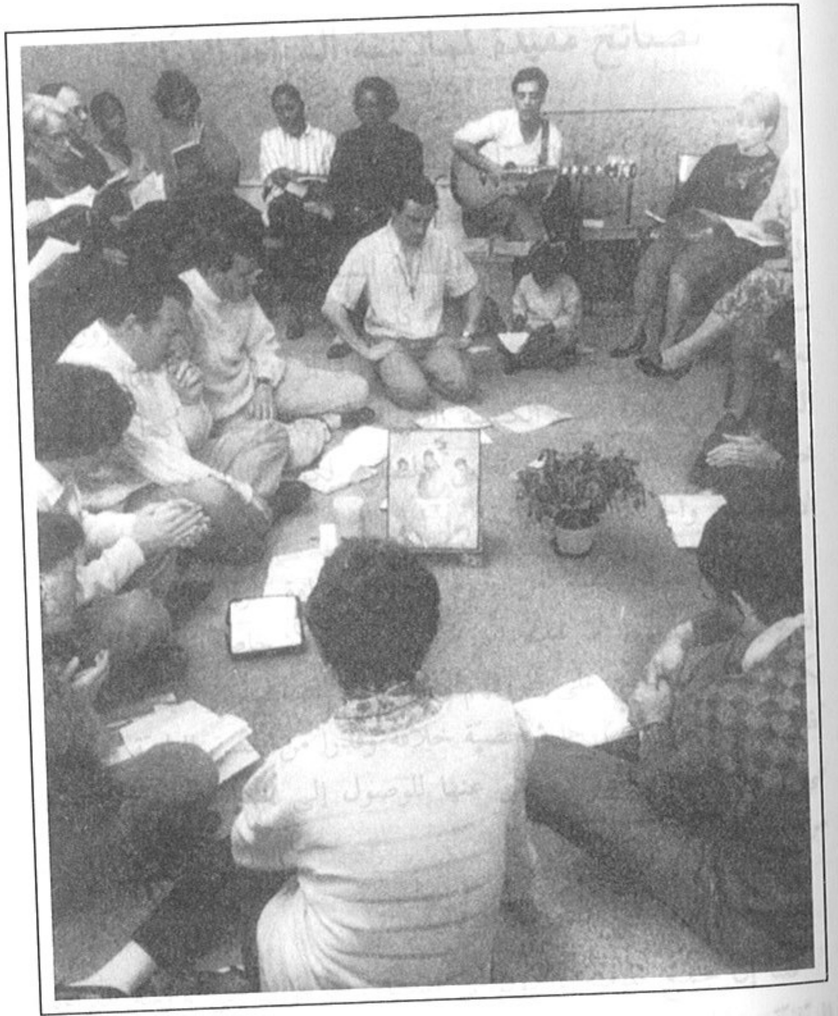

الفصل الخامس

نصائح مفيدة لممارسة القراءة الربّانيّة

بعد أن تكلّمنا في الفصول السابقة عن تعريف القراءة الربّانيّة وأبعادها الروحيّة، وطرق استعمالها ومراحلها، والهبات الروحيّة التي تحدثها كلمة الله في حياة المؤمن وفي حياة الجماعة المسيحيّة ككلّ، بهدف السير في مسيرة متكاملة نحو الله على أساس كلمته الإلهيّة، نرى الآن ضرورياً أن نعطي بعض النصائح المفيدة لممارسة القراءة الربّانيّة بشكل فعّال. وهذه النصائح هي ثمرة خبرة الكنيسة الطويلة في هذا المجال، كما أنّها ثمرة خبرة شخصيّة طويلة في تعامل المصلّي لكلمة الله مع الكثير من الأشخاص والجمعيّات الرهبانيّة.

وهذه النصائح تفيد من يقوم بخبرة القراءة الربّانيّة على المستوى الفرديّ والجماعيّ. لا شكّ أنّه يترتّب على الأشخاص والجماعات أن يكيّفوا هذه النصائح على ظروفهم وأوضاعهم الشخصيّة والحياتيّة الخاصّة. أضف إلى ذلك أنّ روحاً شخصيّة خلاّقة وقدراً من حسن الطويّة والثبات في خبرة الصلاة أمور لا غنى عنها للوصول إلى الثمار الروحيّة المرجوّة من ممارسة القراءة الربّانيّة.

١. المشاركون في القراءة الربّانيّة

قلنا إنّ جميع المؤمنين، دون أيّ استثناء، مدعوّون إلى ممارسة القراءة الربّانيّة. هذا يعني أنّ المسيرة الروحيّة أمر مفتوح للجميع، بما فيهم أولئك

الذين لا يتمتّعون بثقافة دينيّة عالية. فكلّ المؤمنين بحاجة إلى تنمية إيمانهم، وإلى الوصول إلى علاقة حميمة مع يسوع المسيح، وهذا أمر لا يمكن الوصول إليه دون خبرة متّصلة ومتناغمة مع كلمة الله. وقد علّمت الكنيسة دوماً أنّ الاتّصال بكلمة الله أمر لا غنى عنه لكلّ مسيحيّ يريد أن يعيش حياة إيمان بالغ ونافذ في الحياة. وهذا الأمر صحيح بالخصوص في ظروف حياة اليوم. ومع ذلك لا بدّ من وجود خبير متمرّس في القراءة الروحيّة ليقوّم الخطوات الأولى لمن هو جديد على هذه الممارسة، كي يكتشف المعنى الحرفيّ والتاريخيّ لكلمة الله، وهي معانٍ لا بدّ من الوقوف عليها للمرور منها إلى المعنى الروحيّ الموجود في كلمة الله، والذي يشكّل لبّ القراءة الربّانيّة.

ثمّ يجب إضافة بعض التفاصيل حول عدد المشاركين في جلسة جماعيّة للقراءة الربّانيّة. تقول الخبرة إنّه، في مرحلة القراءة، من الأفضل تكوين جماعات صغيرة، لا تتعدّى العشرة أشخاص، بحيث يسمح ذلك بمرور الكلمة وتبادل الخبرات كي يخرج المشارك من وضع المجهول داخل المجموعة. لا شكّ أيضاً أنّ للجوّ الذي فيه تتمّ المشاركة أثرًا كبيرًا في نجاح خبرة القراءة الربّانيّة. وهذه هي الاستعدادات الداخليّة المطلوبة من المشاركين في القراءة الربّانيّة: الاستعداد الدائم – دون أيّة أحكام أو مواقف مسبّقة – للرجوع المستمرّ إلى الله، القلب النقيّ، الهدوء الداخليّ، التواضع وبساطة الحياة. يقول كاسيانوس Cassianus في هذا الصدد: «الكلام الجميل والمنمّط شيء والدخول في عمق المعنى للكلام بغية تذوّق عذوبته الروحيّة بقلب نقيّ وطاهر شيء آخر. فهذا أمر ليس نتيجة العلم والثقافة بل ثمرة النفس التي ينيرها الروح القدس من الداخل». هذه هي الاستعدادات التي تؤمّن فهماً روحيّاً لكلمة الله.

٢. المكان والزمان ومدّة القراءة الربّانيّة

يجب أن يكون المكان مهيّأً بحيث يسمح بجوّ من الصمت والخشوع

والصلاة. من هنا، من المستحسن جدّاً أن يتمّ ذلك في كنيسة أو في مصلًّى أو مكان يسمح بالوصول إلى الهدف المذكور. فهذا هو مكان صراع الإنسان مع عالمه الداخليّ، والصحراء الروحيّة التي فيها نسمع صوت الله يكلّمنا ويصحّح مسيرتنا ويجذبنا إليه. بالنسبة للقراءة Lectio الفرديّة يمكن الاستعانة بالكنيسة، أمّا القراءة الجماعيّة فتفترض قاعة عامّة، حيث يجلس المشاركون على شكل حلقة حول بعض العلامات والرموز التي من شأنها، بمعناها الروحيّ، أن تخاطب وجدانهم. هذه العلامات الخارجيّة هي الكتاب المقدّس الذي يوضع مفتوحاً في وسط المجموعة، رمزاً للسيّد المسيح الحاضر وسط الجماعة المصلّية والمحيطة به. ثمّ شمعة مضاءة أو زهرة أو إيقونة تعبّر عن موضوع القراءة الربّانيّة، وتساعد أو ترافق التفكير والصلاة.

وللوقت أيضاً أهمّيّة في فهم الكلمة. فعليه أن يسير مع نمط حياة الأشخاص دون أن يُتعبهم (راجع لوقا ١٨، ١ – ٨، تسالونيكي ٥، ١٧). وللوصول إلى قراءة ربّانيّة مفيدة، يجب أن يكون الوقت محدّداً وثابتاً. يقول وليم دي سان تييري Guglielmo di Saint-Thierry في هذا الصدد: «يجب تكريس وقت محدّد لقراءة محدّدة. فقراءة عابرة، دون ثوابت، وخاضعة فقط للظروف، لا تبني النفس، بقدر ما تثبّتها في تردّدها. فما يؤخذ بشكل عابر يختفي بشكل سهل». يعود إلى كلّ شخص أن يختار الوقت المناسب للقراءة الربّانيّة، مع التذكير أنّه يجب تكريس أفضل الأوقات للتكلّم مع الله تعالى، وقت تكون فيه النفس مستعدّة والجسم مرتاحاً، ذلك أنّ الجسم له أيضاً دوره في عيش خبرة منفتحة لعمل الروح القدس. غالباً ما يكون هذا الوقت هو فترة الصباح، مع أنّ البعض يفضّل ساعات المساء حين ينتهي الإنسان من عمله اليوميّ. تقول الخبرة أنّ ساعة زمنيّة واحدة تكفي للقيام بالقراءة الربّانيّة في مختلف مراحلها، سواء على المستوى الفرديّ أو الجماعيّ.

يجب القول أيضاً إنّ من يمارس القراءة الربّانيّة عليه أن يتحرّر من أيّ ضغط في الوقت ومن أيّة مواعيد، كي لا يُعكِّر صفاء تأمّله وهدوئه الداخليّ. فمن كان قلبه متحرّراً، استطاع أن يتفرّغ لأمور الله، ولكلّ ما تثيره كلمة الله في داخله، والذي يجب أن يُسلِّط عليه نور الروح القدس.

٣. الألفة والتناغم مع كلمة الله.

من الأمور الخاصّة بالقراءة الربّانيّة، والتي لا بدّ منها كي تكون القراءة بالفعل قراءة «روحيّة»، يجب التركيز، علاوة على ما ذُكر، على الألفة والتناغم الداخليّ مع كلمة الله. فكي نفهم كلمة الله ونتذوّقها، لا يكفي أن نقبلها في قلب منفتح متحرّر، بل يجب الوصول إلى ألفةٍ معها. يجب قراءة النصّ أكثر من مرّة كي يتغلغل في أعماق المؤمن. ينصح كاسيانو Cassiano بقراءة متواصلة ومثابرة للحصول على مساعدة حقيقيّة في مسيرة الإيمان. «هذا هو ما يجب أن تسعى إليه بكلّ الوسائل: اجتهد بثبات ومثابرة في القراءة إلى أن يغمر قلبك تأمّل مستمرّ، أي إلى أن تصبح أنت جزءاً من القراءة». فالقراءة المثابرة هي الطريق إلى الألفة مع كلمة الله، وإلى تناغم في الفكر والحياة والكلام مع خبرة الكتاب المقدّس. فعلامة الحياة الروحيّة للمؤمن ومقياسها هو إمكانيّة تعامله بألفة مع كلمة الله. يقول القدّيس إيرونيموس: «القراءة تُنتج المثابرة، والمثابرة تُنتج الألفة، والألفة تُنتج وتُنمي الإيمان». فمن كان سطحيّاً ومتقلّباً لا يستطيع أن يدخل في عمق غنى الله المتواجد في كلمته المقدّسة. القلب المشبع قراءة والمنحني بحبّ على الكلمة يستطيع وحده أن يتذوّق في قلبه أسرار كلام الله. عندئذٍ يحصل التناغم التامّ بين القلب وبين كلمة الله، وتحصل الوحدة التامّة.

وللوصول إلى كلّ ذلك، هنالك شروط يلخّصها كاسيانوس Cassiano بكلام واضح: «الابتعاد عن أيّ همّ أو تفكير دنيويّ للتفرّغ المستمرّ للقراءة. فتح الأذن باهتمام لسماع كلمة الخلاص، واستعداد الفم لإعلان

هذه الكلمة. فالأمر يختلف عن لحظة نشوة نستنشق فيها عطراً فوّاحاً. الأمر هو تواصل مستمرّ مع كلمة الله، يشبه عمليّة التنفّس المستمرّة. ماذا يحصل عندئذٍ؟ تكتسي الكلمة عالمك الداخليّ، وتكتسب الكلمات قوّة خاصّة ومُلزمة. وكان نفس الكاتب قد قال قبلاً: «ستأتي لحظة يحتوي فيها التأمّل المستمرّ نفسك ويجعله مشابهاً له». وما قال الكاتب كاسيانوس حول الدخول في عالم كلمة الله صدىً لما سبق القدّيس يوحنّا وقال في إنجيله: «إن ثبتّم في كلمتي تصبحون حقّاً تلاميذي، وتعرفون الحقّ والحقّ يحرّركم» (يوحنّا ٨: ٣١، ٣٢).

٤. قراءات السنة الليتورجيّة والقراءة الربّانيّة

يبرز سؤال عند من ينوي ممارسة القراءة الربّانيّة: «ما هي النصوص التي يجب استعمالها في ممارسة القراءة الربّانيّة؟ هل تكفي قراءة من الكتاب المقدّس لها علاقة بموضوع الصلاة؟ هل هنالك أفضليّة لنصوص معيّنة أو لكتاب معيّن من الكتاب المقدّس. أسئلة تبحث عن جواب. والجواب الأوّل نأخذه من تعريف القراءة الربّانيّة نفسه حسب المؤلف روسّي ديغاسبيرس F. Rossi de Gasperis: «القراءة الربّانيّة هي القراءة المتواصلة لجميع كتب الكتاب المقدّس، وفيها تتمّ قراءة كلّ كتاب وكلّ مقطع وتتمّ دراسته والتأمّل فيه وفهمه وتذوّقه، من خلال الرجوع إلى المعنى العامّ للكتاب المقدّس كلّه، بعهديه القديم والجديد. وبهذا التعامل البسيط والمتواضع مع معنى الكتاب المقدّس تصبح القراءة الربّانيّة فعل طاعة تامّة وغير مشروطة لله الذي يتكلّم، ويصبح الإنسان مستمعاً بانتباه تامّ للكلمة... لا تقوم القراءة الربّانيّة بانتقاء نصّ أو نصوص معيّنة بشكل مسبّق بحيث تتّفق مع احتياجات أو ذوق الشخص أو الجماعة التي تقوم بالقراءة الربّانيّة. لا تقوم القراءة الربّانيّة بانتقاء أيّ نصّ لأيّ سبب كان. فهي تبدأ مع كلمة الله وتتابع سيرها مع كلمة الله خطوة خطوة منذ البداية وحتّى النهاية. فالقراءة الربّانيّة تفترض وحدة الكتاب المقدّس وتحترمها

وتتعامل على أساسها». نفهم من ذلك أنّ القراءة الربّانيّة تأخذ كتاباً من الكتب المقدّسة وتتبعه من أوّل جملة حتّى آخر جملة.

لا شكّ أنّ التعامل مع النصوص المقدّسة يجب أن يسير بتناغم مع ما تعرضه علينا الكنيسة في الليتورجيّا كما جدّدها المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني. فهنالك القراءة اليوميّة وقراءات أيّام الأعياد، وقد وضعتها الكنيسة حسب مقياس القراءة الربّانيّة المتتابعة. يقول الكاردينال مارتيني بحقّ: «تحاول قراءات المجمع أن تضع المؤمن على اتّصال مع جميع نصوص الكتاب المقدّس في مدّة سنتين أو ثلاث. وهذا هو الخطّ الذي يجبُ نصحُ المؤمنين باتّباعه في القراءة الربّانيّة». نحن نعلم أنّ المكان المميّز للالتقاء بكلمة الله هو الجماعة الليتورجيّة حيث يوجد المسيح القائم من الموت بشكل خاصّ وسط من يدعونه باسمه (دستور في الليتورجيّا رقم ٧). فيسوع لا يترأّس فقط الاحتفال بكلمة الله، بل هو على رأس ما يقوله وما يفهمه المؤمنون من كلمة الله لأنّه «هو الذي يتكلّم عندما تتمّ قراءة الكتاب المقدّس في الكنيسة» (ليتورجيّا رقم ٧)، وهو الذي يهيّىء القلوب والأذهان لفهم كلمة الله بشكل روحيّ، كما فعل يوماً مع تلميذَي عمّاوس حين اتّقد قلبهما من الداخل بينما كان يفسّر لهما الكتب (راجع لوقا ٢٤،٢٥ – ٢٧). ففي العمل الليتورجيّ، تتحوّل الكلمة من نصّ إلى حياة وسماع لصوت الربّ. وهكذا تجد جميع النصوص وحدتها في نور قيامة المسيح المجيدة. هنا تصبح النصوص لا مجرّد أحداث تُروى، بل تاريخ يتحقّق. في العمل الليتورجيّ، تعود الكلمة إلى الله كجواب صلاة والتزام إيمان متجدّد، وتصبح قراءة ربّانيّة في العمل الفرديّ أو الجماعيّ الذي يجوّنها في النفس ويشهد لها في الحياة.

أمثلة عمليّة على القراءة الربّانيّة

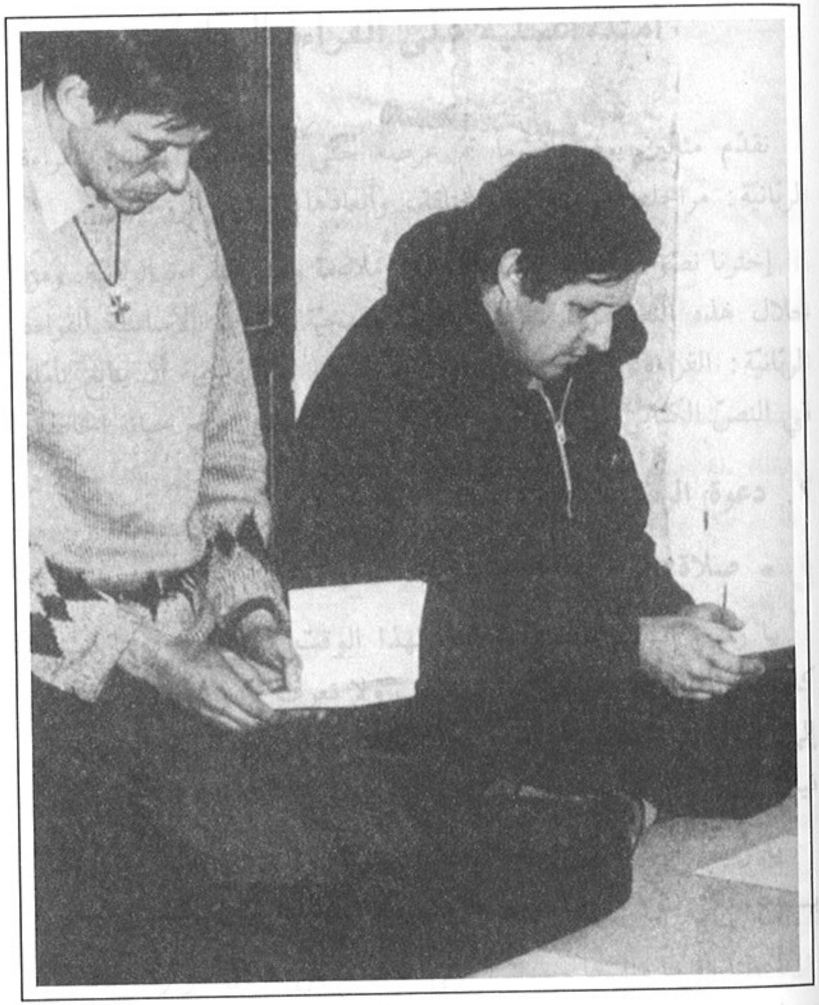

الفصل السادس
أمثلة عمليّة على القراءة الربّانيّة

نقدّم مثالين يوضّحان ما تمّ عرضه حتّى الآن فيما يتعلّق بالقراءة الربّانيّة: مراحلها، وعناصرها المختلفة، وأبعادها وثمارها الروحيّة.

إخترنا نصوصاً كتابيّة نعتقد أنّها أكثر ملاءمة وغنىً للقراءة الربّانيّة. ومن خلال هذه النصوص، نعرض بطريقة منهجيّة المراحل الأساسيّة للقراءة الربّانيّة: القراءة، التفكير، الصلاة. ونترك من ثمّ للقارىء أن يتابع تأمّله في النصّ الكتابيّ في نور الروح القدس، ليطبّقه على واقع حياته الخاصّة.

١. دعوة الرسل الأوّلين (يوحنّا ١: ٣٥ – ٤٢)

*** صلاة إلى الروح القدس**

يا ربّ، إنّنا نمدحك ونباركك، لهذا الوقت الذي توفّره لنا لسماع كلمتك. إنّنا عادة، لا نعرف أن نصغي، ولا نعرف أن نصمت وأن ندخل إلى أعماقنا، ولا نعرف أن نصلّي. ولكنّك منحتنا الروح القدس الذي يصلّي فينا.

يا ربّ، أنت النور والحياة، افتح عيوننا وقلبنا، وأعطنا روح ابنك يسوع، لكي ينوّر عقولنا، ويجعلنا نقبل كتلاميذ حقيقيّين، كلمة الحياة.

أعطنا روحاً منفتحاً وسخيّاً، حتّى نستطيع من خلال حوارنا معك، أن نعرف ونحبّ يسوع، خلاص نفوسنا؛ وأن نشهد لإخوتنا بحقيقة الإنجيل.

لقد علّمتنا، يا ربّ، أنّ الإيمان يولد في قلوب الذين تسكن فيهم كلمتك ومحبّتك.

نحن نشعر أنّنا ضعفاء، ونخشى أن نفشل في درب اتّباعك والسير وراءك. إعمل فينا كي لا نقسّي قلوبنا أمام ندائك الأبويّ، وأمام عمل الروح القدس في أعماقنا وفي داخلنا. نسألك، كلّ ذلك، أيّها الآب القدّوس، باسم ابنك الذي يحيا ويملك بيننا إلى أبد الآبدين. آمين.

نأخذ الآن نصّاً، وهو صفحة من الإنجيل بحسب القدّيس يوحنّا الرسول. إنّه نصّ دعوة الرسل الأوّلين لاتّباع يسوع:

«وكان يوحنّا في الغد أيضاً قائماً هناك، ومعه اثنان من تلاميذه. فنظر إلى يسوع وهو سائر وقال: «هوذا حمل الله!» فسمع التلميذان كلامه فتبعا يسوع. فالتفت يسوع فرآهما يتبعانه فقال لهما: «ماذا تريدان؟» قالا له: «رابّي (أي يا معلّم) أين تقيم؟» فقال لهما: «هلمّا فانظرا!» فذهبا ونظرا أين يقيم، فأقاما عنده ذلك اليوم وكانت الساعة نحو الرابعة بعد الظهر. كان أندراوس أخو سمعان بطرس أحد اللذَين سمعا كلام يوحنّا فتبعا يسوع. ولقي أوّلاً أخاه سمعان فقال له: «وجدنا المشيح» ومعناه المسيح. وجاء به إلى يسوع فنظر إليه يسوع وقال: «أنت سمعان بن يونا، وستدعى كيفا»، أي صخرًا» (يوحنّا ١: ٣٥ - ٤٢).

٭ القراءة

يعرض لنا هذا النصّ شهادة يوحنّا المعمدان بخصوص يسوع؛ إنّها الشهادة التي قادت بعض تلاميذ يوحنّا إلى اتباع الربّ. إنّ هذا المشهد الذي يخصّ أوّلاً شهادة يوحنّا المعمدان الإيجابيّة حول شخص السيّد المسيح، يذكر انضمام اثنين من تلاميذ المعمدان إلى يسوع، ولقاء سمعان، الذي جاء به أخوه أندراوس إلى المسيح.

هذا التقديم المتناسق والحدث التاريخيّ، أي دعوة الرسل الأوّلين قرب نهر الأردنّ، يصف كيفيّة اكتشاف سرّ المسيح، والرسالة اللاهوتيّة المتعلّقة بالإيمان باتّباع المسيح.

إذا انتبهنا إلى النصّ، نستطيع أن نستقبل التعليم الإنجيليّ، الذي سنتحقّق منه في القراءة: وهو أنّه من شهادة المعمدان ينجم اتّباع الرسل للمسيح (آية ٣٧ - ٣٨)، ومن اتّباع المسيح ينتج لقاء بينه وبينهم وبين سمعان، هذه خبرة شخصيّة صميمة، هي شراكة حياة مع المسيح (آية ٣٩)؛ الخبرة الشخصيّة وشراكة الحياة هذه يتوّجان أخيراً باعتراف إيمان من الرسل بيسوع المسيح (آية ٤١ ب).

يتبع إنجيل يوحنّا المخطّط التالي:

١) شاهد موثوق به مثل يوحنّا المعمدان يشهد أمام تلاميذه للمسيح (آية ٣٦)، كما فعل أندراوس مع سمعان (آية ٤١)؛

٢) يأتي بعد ذلك اللقاء الذي فيه يصل رسول المستقبل إلى خبرة شخصيّة مع المسيح (آية ٣٩ - ٤٢)؛

٣) ثمّ يعلن المدعوّ الجديد إيمانه بعد هذا اللقاء (آية ٤١).

يتمحور النصّ حول أصل الإيمان وأساسه، وكيفيّة نقله بواسطة الشهادة. نحن أمام مخطّط إيمان، واكتشاف لسرّ المسيح من خلال معرفة وقبول الرسل التدريجيّ، بعد الظهور الأوّل (في نهر الأردنّ) ليسوع الذي هو المسيح.

تدور أحداث هذا المشهد في اليوم الثالث من الأسبوع التحضيريّ الأوّل لظهور المسيح. يدخل المسيح العالم والتاريخ كأيّ إنسان آخر يذهب إلى الاستماع إلى المعمدان، المحاط بتلاميذه وبالجموع «فنظر إلى يسوع وهو سائر وقال: «هوذا حمل الله» (آية ٣٦).

هناك نقطة في الإنجيل يجب إظهارها: المعمدان كان «قائمًا» هناك،

و«نظر إلى يسوع»، بينما المسيح كان «سائرًا». يقدّم النصّ، الشخصيّة الأولى (يوحنّا المعمدان) كوجه جامد، بينما يقدّم يسوع في حركة «سائرًا». المعمدان بالفعل هو الشاهد، الذي ينتظر، يرى، يقرأ حدث الحياة ويتفاعل معه، ويفسّره ويترجمه إلى شهادة. أمّا يسوع فيسير في الطرق وفي حياة البشر، من غير أن يذكر النصّ من أين يأتي، ولا إلى أين يذهب، ولماذا مرّ من هنا. ليس صعباً أن نستخلص أنّ يسوع ليس من هذا العالم، وإنّما من الآب، ويمرّ منتظراً أن يستقبل أحدُهم هذه الشهادة ويعلنها.

«فسمع التلميذان كلامه فتبعا يسوع» (آية ٣٧). ينجم اتّباع يسوع من الاستماع للشهادة (راجع رومية ١٠: ٣٧). فعل تبع في اليونانيّة (= akolutheo) الذي ورد في إنجيل يوحنّا يعني «صار تلميذاً»، «سار وراء معلّم» (راجع ١: ٤٠ – ٤٣؛ ١٠: ٤، ٢٧؛ ١٣: ٣٦ – ٣٨؛ ٢١: ١٩ – ٢٢).

التلمذة تعني «السير وراء» واتّباع. سار التلاميذ وراء يسوع، السائر أمامهم. «فالتفت يسوع فرآهما يتبعانه فقال لهما: «ماذا تريدان؟» (آية ٣٨ أ). عندما رأى يسوع استعداد الشخص لاتّباعه، أخذ هو المبادرة ليتحقّق من مصداقيّة هذا الاستعداد. وسؤال يسوع يتطلّب جواباً. تساءل الرسل عن معنى حياتهم، عن معنى بحثهم وعن مسيرتهم وراء المسيح، فأجابوا: «رابّي (أي يا معلّم) أين تقيم؟» (آية ٣٨ ب)، كأنّهم يسألون، «أين تسكن؟ أين نستطيع أن نتحدّث معك؟». ليس المقصود هنا معرفة المكان المادّيّ أي مكان سكنى المسيح، حيث يمكنهم أن يلتقوه، بل المقصود هو معرفة سرّ المسيح، أي المجال الحيويّ الذي فيه يحيا. إنّ يسوع يحيا في الآب، والآب هو ذلك المكان الذي فيه يستطيع الرسل أن يلتقوا معلّمهم. دعوة يسوع واقعيّة: «هلمّا فانظرا» (آية ٣٩ أ)؛ عليهم الآن أن ينطلقوا في مسيرة، ليتحقّقوا من خلالها في المستقبل، من صحّة وسلامة خبرتهم مع يسوع.

«فذهبا ونظرا أين يقيم، فأقاما عنده ذلك اليوم، وكانت الساعة نحو الرابعة بعد الظهر» (آية ٣٩ ب). فِعْل «ذهب» يدلّ على مسيرة؛ وفعل «نظر» يعني الدخول في سرّ هويّة يسوع، التي هي الرؤية في الإيمان؛ وفعل «أقام» يشير إلى الألفة، وشراكة الحياة والخبرة الشخصيّة مع المسيح.

عند هذه النقطة، يشعر الإنجيليّ بالحاجة إلى أن يحدّد الوقت الذي فيه دخل في خبرة مع يسوع: «وكانت الساعة نحو الرابعة بعد الظهر». ساعة الكشف، ساعة نور يسوع. فقد أنار حياة تلاميذه. عاد أندراوس إلى البيت، فوجد أخاه سمعان، فأعرب واعترف له بإيمانه، وهذا هو رسالة وتبشير: «وجدنا المسيح» (آية ٤١). وأندراوس، بعد أن اختبر حدث لقائه بالمسيح، يقود أخاه إلى يسوع، الذي يبدّل اسمه من سمعان إلى كيفا، (أي «صخر») (آية ٢)، دلالة على دعوته ورسالته التي عليه أن يقوم بها في الكنيسة.

هدف النصّ في الأساس هو إذاً، أصل الإيمان وكيفيّة نقله عن طريق الشهادة. نحن أمام مسيرة إيمان واكتشاف لسرّ يسوع، عن طريق معرفة وقبول التلاميذ تدريجيّاً لهذا السرّ، بعد ظهور يسوع كمسيح في نهر الأردنّ.

* التفكير

عند عرضنا لمرحلة التأمّل، قلنا إنّ التفكير هو بحث ومواجهة ونظر وتمعّن في العمق، في الداخل، هو تساءل، وفحص لحياتنا الشخصيّة الخاصّة ولتاريخنا على ضوء كلمة الله.

الآن، في قراءتنا لإنجيل يوحنّا، نندهل أمام سرّ شخصيّة يسوع وعظمة إنسانيّته، التي تتجاوب والتطلّعات الأساسيّة للإنسان ولكلّ واحد منّا. البحث عن يسوع يعني أن نكتشفه من خلال تصرّفات الأشخاص الذين

يلتقيهم هو ونلتقيهم نحن. الدخول في سرّ يسوع يعني أن نراقب العالم الذي بواسطته ندخل في علاقة معه ومع الآخرين.

دعوة التلاميذ لاتّباع المعلّم كانت حادثاً عاديّاً في الزمان والمكان. لا يحدّد الإنجيليّ مكاناً معيّناً، لأنّه يعلم جيّداً أنّ الحدث، في زمن الكنيسة، يتكرّر دائماً وفي كلّ مكان. من المهمّ أن يعرف الشاهد أن يقرأ أحداث حياته، وبدافع من خبرته أن يدخل في صميم قلب يسوع، ويعرف أن يقود الآخرين إليه. رسالة المعمدان، عندما حضر يسوع إلى نهر الأردنّ، كانت على وشك أن تنتهي، وصديق العريس كان يعرف أنّ عليه أن يعتزل، عندما يصل العريس، وأن يترك بتواضع مكانه إلى آخر (راجع يوحنّا ٣: ٢٩ – ٣٠).

يسوع، الذي هو ليس من هذا العالم، بل من عند الآب، عليه أن يأخذ المبادرة حتّى في حياة كلّ واحد منّا، كما فعل مع تلاميذه الأوّلين. إنّه يمرّ دائماً على طرق البشر، على طرقنا، في انتظار أن يقبل كلّ واحد منّا الشهادة ويعلنها للآخرين.

في حياتنا هناك يوم أو لقاء أحدث فينا تغييراً جذريّاً: إنّها دعوة الله الشخصيّة وغير المنتظرة في حياتنا ورسالتنا. وغالباً ما يستخدم الله، لكي يدعونا، أشخاصاً مثل يوحنّا المعمدان، يمكن أن يكونوا أهلنا، أو صديقاً، أو كاهناً، أو كتاباً، أو رياضة روحيّة أو أيّ عنصر آخر. لكن الله هو الذي يدعونا لاتّباعه لبناء عالم جديد.

الخطر هو أن يمرّ بنا دون فائدة، لأنّنا لم نسمعه بجدّيّة. لنتساءل إذاً: في أيّ شخصيّة من نصّ الإنجيليّ يوحنّا أجد نفسي؟ في شخصيّة يوحنّا المعمدان؟ في أندراوس؟ في سمعان؟ وأيضاً: من كان في حياتي بمثابة يوحنّا المعمدان وجعلني أكتشف يسوع؟ أو، لنجعل من سؤال يسوع سؤالنا: «ماذا تريدان؟» أو، ما هو معنى حياتي المسيحيّة، أو معنى اتّباعي

اليوم للمسيح؟ من المهمّ أن نسأل أنفسنا هذه الأسئلة وأن نشعر في قلوبنا بالجواب الذي يأتي من الروح القدس.

نستطيع أن نتساءل أيضاً: في أيّة مرحلة من مسيرة التلمذة هذه أجد نفسي؟ في فترة السماع للشهادة، كتلك التي شهدها يوحنّا المعمدان أمام تلاميذه؟ أو في المرحلة الثانية، داخل المسيرة وراء المعلّم لألتقيه وأراه؟ أو في المرحلة الثالثة، مرحلة اللقاء والخبرة الشخصيّة الحميمة في الصميم مع يسوع؟ أو في المرحلة الأخيرة، مرحلة إعلان إيماني إلى الآخرين كشهادة حياة، بعد أن التقيت وتذوّقت صداقة يسوع؟ أي، هل أصبح إيماني مُعدياً، مُرسَلاً، مُبَشِّراً؟ وإذا أردنا أن نطيل فترة التفكير، نستطيع أن نتوقّف عند بعض الكلمات أو بعض الأفعال ذات المعنى مثل: «يمرّ... ينظر إلى... يأتي... يرى... ذهب... مكثا معه». من كلّ كلمة يمكن أن تولد المواجهة والتفكير. المهمّ أن نستقبل يسوع الذي يمرّ من خلال كلمته وأن نعرف أن نُدخلها إلى أعماقنا ونتواجه معها. ومن المواجهة مع كلمة الله تنجم مسيرة الحياة الروحيّة. من يدخل عالم الكتاب المقدّس يصبح في عداد الأشخاص الذين عملوا من القراءة الربّانيّة مركز حياتهم.

* الصلاة

هنا تُترجَم عمليّة القراءة والتفكير في كلمة الله، إلى صلاة عفويّة، وفعل تسبيح للسيّد المسيح، انطلاقاً من الأحاسيس والمشاعر الداخليّة التي أثارتها فينا كلمة الله.

أيّها الآب الصالح، نسألك أمام كلمتك التي تنادينا، تحثّنا وتدعونا إلى الرجوع إليك: كيف علينا أن نتصرّف كي نعيش كتلاميذ حقيقيّين لابنك؟ دلّنا يا يسوع على الطريق التي يجب أن نسلكها، إنها طريق السير وراءك، بحماس وأمانة كالرسل الأوّلين. ليس من السهل أن نسير دائماً في هذه الطريق المتطلّبة. إلاّ أنّك أيضاً رسمت لنا الطريق لممارسة إنجيلك: مبتدئين

بالبحث عنك والجواب على نداءاتك اليوميّة من خلال كلمة الحياة، لنصل تدريجيّاً إلى عيش حقيقة الإنجيل الملزمة.

نحن بحاجة يا ربّ، أن تأخذ أنت المبادرة في حياتنا وأن تقودنا نحو خبرة صميمة من الشراكة معك ومع يسوع معلّمنا. ساعدنا تدريجيّاً على أن نكتشف بواسطة يسوع، كما فعل أندراوس وسمعان، أنّك أنت السيّد الأوحد لحياتنا وأنّه من خلال يسوع نستطيع أن نصل إليك أنت أبانا، فنشهد بإيمان حيٍّ لإخوتنا.

نريد يا ربّ، أن نحيا في الحبّ الإلهيّ الأوحد، الغنيّ دائماً بالمفاجآت. ليساعدْنا نظرك وإنسانيّتك أن نتقرّب منك ومن إخوتنا بعيون بسيطة وصريحة، على مثال التلاميذ الأوّلين، لنثق دوماً بكلّ إنسان أخينا. أرنا أين تسكن في عالمنا هذا وقوّنا دائماً على خدمة الصغار والفقراء، حيث اخترت أن تعيش. آمين.

٢. الصيد العجائبيّ على بحيرة طبريّة (يوحنّا ٢١: ١ – ٤١)

* صلاة إلى الروح القدس

أيّها الربّ يسوع، أنت النور النازل على الأرض لتضيء كلّ البشريّة، أنت حقيقةُ الآب الذي يحمل الأمل والحياة لأبنائه البعيدين القابعين في ظلمة الضلال. أنت خاتمة التاريخ البشريّ، لأنّه بواسطتك أُعطيَ الخلاص لكلّ إنسان.

نشكرك من أجل كلمتك، من أجل إنجيل محبّة الآب، الذي به جئت مخلّصاً لنا، من أجل مثال الحياة الذي اتّسم بأحداث واقعيّة، فرسمت فينا حياتَك.

ومع ذلك نحن لم نحسن التعامل معك، وغالباً ما كان صيدنا، كمؤمنين، عقيماً وبدون ثمر صالح.

سامحنا وأعطنا قلباً نادماً تائباً، لكي لا ننكرك مرّة أخرى، بل ليشعّ من خلال حياتنا النور والفرح الذي جلبته لنا بإنجيلك، ولكي تتحوّل شهادتنا المسيحيّة إلى محبّة لإخوتنا الذين لا يعرفونك بعد، وما زالوا يعيشون في الضلال.

نسألك، يا ربّ، أن تَظهر بيننا وتعطينا روحك، روح الحقّ، لكي تكون كلمتك، المعلنة منذ آلاف السنين، ولا تزال تُعلن اليوم، حيّة، عميقة، تجدّد قلوبنا، وتجعلنا نعرف طريق اتّباعك، وتحملنا على التجاوب مع دعوتنا ورسالتنا في العالم.

زد إيماننا في كلمتك، لكي نتعمّق فيها دائماً بنور الروح القدس، ونأخذها مأخذ الجدّ، كأساس للتمييز في الأحداث والمشاكل التي تحيط بحياتنا.

إهدم أنانيّتنا، التي هي وباء عصرنا، اهدنا لنساعد كلّ إنسان حتى نستطيع أن نجد حقيقة الله وفرح الخدمة في كلّ أخ يعاني من حاجة أو ألم. آمين.

يصف لقاء يسوع مع تلاميذه الصيّادين العائدين إلى مجال عملهم في بحر الجليل، بطريقة رمزيّة، رسالة الكنيسة الناشئة في فترة الأزمات والمصاعب، ويُظهر أنّ جهد كلّ جماعة مؤمنة يبقى عقيماً، طالما تعمل الرسالة «في الظلام» من غير المسيح. بيد أنّها تصبح مثمرة عند «الفجر» بوجود المسيح معها، فتطيع كلمته وتعيش في حضوره.

لنقرأ نصّ الكتاب المقدّس:

«وتراءى يسوع بعدئذٍ للتلاميذ مرّة أخرى. وكان ذلك على شاطئ بحيرة طبريّة. وهكذا تراءى لهم: كان قد اجتمع سمعان بطرس وتوما الذي يقال له التوأم ونتنائيل من قانا الجليل وابنا زبدى وآخران من تلاميذه. فقال لهم سمعان بطرس: «أنا ذاهب للصيد». فقالوا له:

«ونحن نذهب معك». فخرجوا وركبوا السفينة، ولكنّهم لم يصيبوا في تلك الليلة شيئاً.

فلمّا كان الفجر، وقف يسوع على الشاطىء، فلم يعرف التلاميذ أنّه يسوع. فقال لهم: «أيّها الفتيان، أمعكم شيء من السمك؟» أجابوه: «لا». فقال لهم: «ألقوا الشبكة إلى يمين السفينة تجدوا». فألقوها، فإذا هم لا يقدرون على جذبها، لما فيها من السمك. فقال التلميذ الذي أحبّه يسوع لبطرس: «إنّه الربّ». فلمّا سمع سمعان بطرس أنّه الربّ، ائتزر بثوبه، لأنّه كان عرياناً، وألقى بنفسه في البحيرة. وأقبل التلاميذ الآخرون بالسفينة، يجرّون الشبكة بما فيها من السمك، ولم يكونوا إلاّ على بعد نحو مائتي ذراع من البرّ.

فلمّا نزلوا إلى البرّ أبصروا جمراً متّقداً عليه سمك، وخبزاً. فقال لهم يسوع: «هاتوا من ذلك السمك الذي أصبتموه الآن». فصعد سمعان بطرس إلى السفينة، وجذب الشبكة إلى البرّ، وقد امتلأت بمائة وثلاث وخمسين سمكة من السمك الكبير، ولم تتمزّق الشبكة مع هذا العدد الكثير. فقال لهم يسوع: «تعالوا افطروا». ولم يجرؤ أحد من التلاميذ أن يسأله: من أنت؟ لعلمهم أنّه الربّ. فدنا يسوع فأخذ الخبز وناولهم، وفعل مثل ذلك في السمك. تلك المرّة الثالثة التي تراءى فيها يسوع لتلاميذه بعد قيامته من بين الأموات». (يوحنّا ٢١: ١ – ١٤).

ب) القراءة

يتألّف النصّ من فقرتين:

١) ظهور يسوع في الجليل والصيد العجائبيّ (آية ١ – ٦ ب).

٢) التعرّف إلى يسوع والطعام الذي أعدّه هو لهم (آية ٧ – ١٤).

يلخّص الإنجيليّ الرابع معنى النصّ الكامل بقوله: «ظهر يسوع مجدّداً على بحيرة طبريّة» (آية ١). كانت جماعة الرسل كأنّها في انتظار رسالة جماعيّة.

النصّ مليء بالتأويلات والرموز. لنرَها باختصار: «البحر» حيث ذهب التلاميذ للصيد أو للقيام بعملهم التبشيريّ، يمثّل المكان أو المجال الذي يعيش ويعمل فيه الإنسان، وهو مجال التعب الإنجيليّ، حيث يمكن للرسول أن يضيع أو يغرق بسبب العديد من وقائع الحياة المُهدِّدة والخطرة.

يدلّ عدد التلاميذ «سبعة» على الكمال. هؤلاء التلاميذ السبعة هم رمز للبذرة الأولى للجماعة المسيحيّة وهم يمثّلون الكنيسة بأجمعها. بين هؤلاء التلاميذ نجد «بطرس» في المقدّمة، وهذا يشير إلى عمله ومسؤوليّته كقائد للكنيسة. بناء على طلبه بالذهاب للصيد، للرسالة، : «أنا ذاهب للصيد». ويردّ الآخرون بالإجماع: «لنذهب نحن أيضًا». ولكن حتّى وإن هم عملوا معاً (= الوحدة الكنيسة)، لم يصيبوا شيئاً في تلك الليلة (آية ٣ ب). الرسالة بدون المسيح هي فشل كامل وعقيم. أوقات الأزمات والضياع مشار إليها إمّا بكلمة «ليل»، وذلك ليس حدثاً زمنيّاً فقط، بل يرمز إلى غياب يسوع، النور الحقيقيّ، وإلى الضياع الداخليّ وضعف الإيمان، وإلى خطيئة اكتفاء التلاميذ الذاتيّ، مشار إليها بمخطّط الرسول الشخصيّ: «أنا ذاهب للصيد... نحن...» (آية ٣ أ).

أمام معرفتنا لعدم مقدرتنا على النجاح وحدنا في هذا المشروع، يتدخّل المسيح، «في الفجر»، الذي هو وقت عمل الله، (راجع حزقيال ١: ٢٤؛ مزمور ٥: ٤؛ ٣٠: ٦)، بلطفه وحنانه المعتاد وبعطاء كلمته، مادحاً الجماعة التي تثبت متّحدة في تعب العمل الرسوليّ. لم يتعرّف الرسل في البداية على المعلّم؛ من هنا عليهم أن يتعلّموا وحدهم إعطاء جواب إيمان.

يضعُهم المسيح أوّلاً في جدال أمام فشلهم، وأمام خطيئة الاكتفاء

الذاتيّ، مكتشفين بتواضع أنّ عملهم كان فاشلاً وعقيماً وبدون ثمر، ثمّ يعرض عليهم عروض حياة: «ألقوا الشبكة عن اليمين، تجدوا» (آية ٦). ترمز جهة «اليمين» في اللغة الساميّة إلى الفأل الحسن وإلى رغد الحياة، وكلّها من عمل وصنع الله. يدفع يسوع تلاميذه وأتباعه لسماع كلمته وعيشها في الطاعة. وكانت النتيجة صيداً عجائبيّاً وفيراً. وثق التلاميذ بيسوع، ووضعوا كلمته في مركز حياتهم، فاختبروا معه جمال تجدّد حياتهم في الإيمان.

هنا بدأ التلاميذ، الواحد تلو الآخر، على مثال التلميذ الحبيب، الذي عرف في الشخص الذي على الشاطىء «الربّ» (آية ٧)، بدأوا يتعرّفون هم أيضاً بالإيمان على المسيح، الذي يدعوهم إلى الاشتراك في الوليمة التي أعدّها بنفسه، وهو يريد منهم أيضاً أن يشتركوا فيها بوضعهم على المائدة ثمر رسالتهم الإنجيليّة.

وصلوا إلى الشاطىء ووجدوا النار وفوقها السمك والخبز. زاول بطرس عمله وخدمته في الجماعة، فسحب الشبكة إلى البرّ «وقد امتلأت بمائة وثلاث وخمسين سمكة» (آية ١١)، من غير أن تتمزّق، لأنّه إلى بطرس أُعطيت مهمّة الحفاظ على وحدة الكنيسة. ويقترب الآخرون من المسيح متعاونين معاً في سحب القارب. تبع ذلك دعوة المسيح «تعالوا فكلوا» (آية ١٢ أ). في الوليمة العامّة، المسيح القائم يقدّم ذاته للأكل، تحت أشكال حضوره السرّيّ.

في هذه اللحظات يدخل التلاميذ في نسيم السرّ الإلهيّ. عندما يتكلّم النصّ عن الخبز والسمك، فهو يرمز بنوع واضح وصريح إلى الإفخارستيّا قمّة حياة الجماعة المؤمنة: «فدنا يسوع فأخذ الخبز وناولهم، وفعل مثل ذلك في السمك» (آية ١٣).

النتيجة التي يصل إليها الإنجيليّ في كلامه عن الظهور الثالث للمسيح بعد قيامته (راجع يوحنّا ٢١: ٢٢ - ١٤)، هي أنّها دعوة للجماعة المؤمنة في

كلّ زمان لإيجاد معنى دعوتها ورسالتها الخاصّة، واضعة المسيح في مركز حياتها كسيّد وربّ، لأنّه في سماع كلمة الله وفي اللقاء الإفخارستيّ (= الوليمتان) يثمر عمل الكنيسة بين البشر.

* التأمّل

يرمز نصّ الصيد العجائبيّ إلى سرّ الجماعة المؤمنة التي تحاول أن «تعمل» وتبني معاً، ومع الإخوة الآخرين، في بناء ملكوت الله؛ ولكن عندما يتمّ ذلك في «الليل» أي عندما تعتمد فقط على قواها البشريّة، تواجه مرارة الفشل والإحباط؛ أمّا إن عملت في «الفجر» وحاولت أن تكون مطيعة لكلمة المسيح، فهي تحمل ثمراً، وينجلي أمامها بوضوح معنى دعوتها ورسالتها.

الحفاظ على توازن بين «العمل» و«الكينونة» مع المسيح سيقرّر نوعيّة الحياة المسيحيّة التي تعيشها الجماعة. فالجماعة التي تكتفي بالعيش على السطح تصبح غير قادرة على الغوص في عمق ذاتها، ولن تكتشف أبدًا «قلب المركز» الذي هو الله وكلمته. فقط الجماعة التي تعيش وترى نفسها في مركزها، تعرف نفسها، وتجد الله وكلمته، لأنّه كما يقول الأب ريكور Ricoeur: «الحياة الداخليّة هي نبع علاقاتها الخارجيّة».

ماذا يقول أيضاً هذا النصّ لكنيستنا، وللجماعة التي نعيش معها، ولنا نحن الملتزمين والعاملين في حقل الرسالة؟ ماذا يقول هذا النصّ لكلّ واحد منّا ولجماعاتنا المسيحيّة من خلال دعوة المسيح: «ألقُوا الشبكة إلى اليمين تجدوا...» (آية٦). يمكن استخلاص ثلاث نقاط:

١) حتّى تخرج الحياة المسيحيّة، سواء على المستوى الفرديّ أو على المستوى الجماعيّ، من حالة الضياع والتعب والأزمات، عليها أن تنفض عنها بقوّة الخمول أي السطحيّة في حياتها الروحيّة. يدعو المسيح تلاميذه، الخائرة عزائمهم والمحبَطين من قلّة الصيد، أن يدخلوا إلى أنفسهم، ويعترفوا بضعفهم، وأن يضعوا ثقتهم، لا في مشاريعهم البشريّة

والشخصيّة، بل في قوّة الله وكلمته، وفي منطق الإيمان بكلّ التزام وعمل رسوليّ. فقط الإيمان المؤسّس على قناعات ثابتة، واختيارات شخصيّة، وحياة داخليّة، يسمح للمسيحيّ المنغمس في ما هو مادّيّ ووقتيّ، والذي يعيش في اغتراب عن نفسه، منشغلاً في تشاغل عقيم، أن يتخطّى عوائق القلق والاضطراب الروحيّ.

٢) لكي تعمّق الحياة المسيحيّة دائماً أكثر معنى دعوتها ورسالتها، سواء على المستوى الفرديّ أو على المستوى الجماعيّ، عليها أن تتخطّى عوائق الانفراديّة الخطيرة، التي تتربّص بها باستمرار، وأن ينبع كلّ عمل رسوليّ من الاتّحاد بالربّ، بحيث تنتعش الحياة بنفس المحبّة التي دفعت المسيح لإعطاء حياته للجميع (راجع مرقس ١٤: ٢٤): «إنّ الواجب الأوّل – يقول البابا يوحنّا بولس الثاني – هو أن نكون مع المسيح. هناك خطر دائم للعاملين في حقل الرسالة، وهو أن يُشغِلوا أنفسهم بالعمل من أجل الربّ، ناسين أنّ الربّ هو أساس جميع الأعمال» (يوحنّا بولس الثاني «رسالة إلى مجمع الحياة المكرّسة والجمعيّات الرسوليّة» ١٩٨٠). يجب على المسيحيّ أن يضع المسيح في مركز أقواله وأعماله. من المستحيل أن يقوم المسيحيّ بمسيرته الخاصّة بمعزل عن الربّ وعن الآخرين. علينا أن نهيّىء أنفسنا للتعب وللفرح بالعمل سويّة من أجل الإنجيل.

٣) لكي تجد الحياة المسيحيّة الوحدة في حياتها الروحيّة وفي العمل الرسوليّ، سواء على المستوى الفرديّ أو على المستوى الجماعيّ، وتكتسب معنى الرسالة، يجب أن تخرج من أُطر الجوّ الثقافيّ المليء حتّى التخمة بالكلام البشريّ الفارغ، وغير المترجم إلى عمل، لتتعلّق بشكل ثابت بثقافة كلمة الله وإنجيله. علينا أن نثق ونؤمن بشخص المسيح. علينا أن نطيع، على مثال التلاميذ، الإنجيل وكلمته؛ واضعين تلك الكلمة في مركز كلّ اختيار راعويّ ورسوليّ، مقتنعين أنّ كلمة الله هي التي يجب أن توضع دوماً في قلب عملنا من أجل الملكوت، كي نبني أيّ مشروع

رسوليّ، وكلّنا ثقة بذاك الذي هو المعلّم الأوحد الذي يستطيع أن يفتح أمامنا آفاقاً جديدة من النور.

نستطيع أيضاً أن نتساءل، في ضوء هذا النصّ الذي نتأمّل فيه، في أيّ من التلاميذ أجد نفسي؟ ماذا تقول لنا، نحن المؤمنين، صرخة الإيمان التي انفجرت من قلب التلميذ الحبيب: «إنّه الربّ» (آية ٧)، واستجابة بطرس والتلاميذ الآخرين السريعة؟ ماذا يعني بالنسبة للجماعة طلب المسيح: «هاتوا من ذلك السمك الذي أصبتموه الآن» (آية ١٠ و ١٢)؟ باختصار نستطيع أن نجد ما يلي:

١) على الجماعة المسيحيّة أن تجتمع وتعمل معاً في حقل الرسالة. نجد معنى حادثة الصيد العجائبيّ، في الجماعة التي تبحث عن علامات منظورة للمسيح القائم، في العمل الجماعيّ، وفي الوحدة، وفي المحبّة، وفي التعاون المعاش بين إخوة في الإيمان، بالرغم من اختلاف العقليّات والمشاعر بين أفراد الجماعة. التعب المشترك ومساعدة الواحد للآخرين، عمِلا في النهاية على أن يجد المؤمنون أنفسهم كجماعة متّحدة في معرفة المسيح، حول نفس المائدة. الروحانيّة الإنجيليّة هي روحانيّة جماعيّة، حيث الواحد يساعد الآخر ويدعمه، روحانيّة تضع دائماً المسيح في مركز الجماعة والمشاريع التربويّة والرسوليّة.

٢) يجب على الجماعة المسيحيّة أن تعرف وتقبل فعل إيمان الآخرين، وعطيّة شهادتهم. فسمعان بطرس فتح قلبه أمام شهادة إيمان التلميذ الحبيب، وقبل عطيّة الإخوة. هكذا يجب أن يكون كلّ عضو في الجماعة: «الإيمان – يقول بولس الرسول – من السماع، والسماع هو من المناداة بكلام المسيح» (رومية ١٠: ١٧ – ١٨). كلمة الله في حياة المؤمن لا تنتهي عند السماع والقبول، ولكنّها تتطلّب الشهادة حتّى يمكن تصديقها. شهادة الإيمان هي صوت الضمير، وثمرة الحياة الداخليّة

للمسيحيّ، هي عطيّة الله وعطيّة الروح القدس، مبدأ المشاركة والاتّصال: «الرهان – يقول الكادينال مارتيني – هامّ، لأنّه إذا لم ننتصر على كسل الاتّصال، سنغرق في نشر وتوزيع رسائل غامضة غير واضحة؛ وإن لم نستطع أن نلتقي في بابل، ونخلق أماكن تلاقٍ في بابل هذه سنقع في القلق والاضطراب». (الكاردينال مارتيني: الاتّصال والحياة الرهبانيّة» لقاء مع رهبان الأبرشيّة، سنة ١٩٩٠). القراءة الربّانيّة هي مدرسة اتّصال في مدرسة يسوع.

٣) الجماعة المسيحيّة تُبنى معاً حول مائدة الكلمة والإفخارستيّا الواحدة. فنصّ القدّيس يوحنّا، الذي نحن بصدده، واضح في هذه النقطة. القراءة الربّانيّة والإفخارستيّا هما طعامنا الروحيّ حتّى وإن بطريقة مختلفة. الإفخارستيّا هي سرّ صداقتنا مع الله والقراءة الربّانيّة هي شبه السرّ لهذه الصداقة: «لأنّه – كما يقول القدّيس إيرونيموس – جسد المسيح هو طعام حقيقيّ ودمه هو شراب حقيقيّ، وخيرنا الوحيد في هذه الحياة هو تناول هذا الجسد وشرب هذا الدم، ليس فقط في سرّ المائدة، وإنّما أيضاً في قراءة الكتب المقدّسة».

*** الصلاة**

أيّها الآب الرحيم، أنت ينبوع الحبّ، نشكرك على العطيّة، التي منحتنا فيها المسيح – الكلمة، والمسيح – الإفخارستيّا، خبز الحياة المكسور من أجلنا، وهو غذاء لحياتنا الروحيّة الشخصيّة والجماعيّة.

ما من عطيّة أجمل من أن تترك لنا شخص ابنك الوحيد، الحاضر دوماً بيننا، تحت شكلَي الخبز والخمر في الإفخارستيّا، في كلّ بقعة من الأرض.

نريد يا ربّ أن نبادلك عطيّتك هذه الكبيرة، بأن نحاول أن نعيش في تواصل مستمرّ معك من خلال العلامات التي قدّمها لنا الرسول يوحنّا: المقدرة على الاعتراف بأنّنا خطأة ومساكين، والوحدة والمحبّة

المتبادلة بين إخوة الإيمان الذين يعملون من أجل الملكوت، والطاعة لكلمة الحياة والمشاركة المعاشة في الشهادة حول المائدة الإفخارستيّا.

ربّما تساعدنا مسيرة الإيمان هذه وتتيح لنا التأكّد من محبّتك وسلامك.

كثيراً ما نشعر بالتعب والإرهاق في متابعة هذه المسيرة، ولكنّنا على مثال الرسل في حادثة الصيد الليليّ، نتجاسر على حملك في قلوبنا، لنبقى معك، ونثق بك، لأنّنا نرى أنّ تطلّعاتنا الكثيرة محبطة، ورسالتنا وتبشيرنا عقيمان.

أيّها الآب الحنون،

أدخل في حياتنا، عندما يعترينا القلق والهمّ، عندما نفقد الرجاء، وجدّد فينا الشجاعة التي تساعدنا عن أن نضعك فيما بيننا وفي وسطنا، وأن نسير نحوك، أنت الحقيقة الأكيدة الوحيدة بثقة متجدّدة، وهكذا نستطيع أن نذهب نحو الإخوة بقلوب متجدّدة لنبشّرهم بأنّك أنت السيّد الأوحد وأنّك المحبّة التي تخلّص العالم. آمين.

الخلاصة

في نهاية هذه المسيرة، التي فيها حاولنا أن نكتشف عالم القراءة الربّانيّة، أسلوبًا، وروحانيّةً وممارسة، نريد أن نلفت النظر إلى بعض الاعتبارات المهمّة:

١) القراءة الربّانيّة بحدّ ذاتها طريقة بسيطة، وهي في متناول الجميع، حتّى وإن ظهرت بعض الصعوبات في ممارستها، مثل صعوبة الصمت، والدخول إلى ذواتنا، والصلاة. ولكن يمكن التغلّب على هذه الصعوبات بالأمانة على المواظبة اليوميّة وعلى محبّة كلمة الله، مقتنعين أنّها تُدخلنا في علاقة شخصيّة مع المسيح ومع عالم الروح. ندخل إلى كلمة الله بقلوب نقيّة، منفتحة على الاهتداء المستمرّ. القراءة الربّانيّة تتطلّب رحلة إلى الداخل، بكلّ هدوء، مع القصد على «القراءة المستمرّة». وهي

كجولة سياحيّة، نمرّ فيها هنا وهناك من خلال النصوص المختلفة. يوصى، على الأقلّ في بداية ممارسة القراءة الربّانيّة، أن يكون بين أيدينا دليل، يساعدنا على تخطّي الصعوبات الأولى، ولكنّ المساعد الرئيسيّ يبقى دائماً الروح القدس الذي علينا أن ندعوه باستمرار بالصلاة. لكي نستطيع أن نسمع كلمة الله، علينا أن «نكون من الله» (راجع يوحنّا ٦: ٤٥؛ ٨: ٤٧) وأن نفسح المجال لعمله. أن نقرأ الكتاب المقدّس يعني أن نتذكّر الله، بدل أن ننتظر شيئاً جديداً. وحده الروح القدس يستطيع أن يدخلنا في عالم الألوهيّة ويوقظ فينا ذكرى الله الذي يعيش في أعماقنا.

٢) يبقى الكتاب المقدّس المصدر الوحيد للقراءة الربّانيّة، لكن، بجانب الكتب المقدّسة، ومن أجل تفسير صحيح للنصّ المقدّس، يجب أن لا نهمل أو ننسى تفاسير الكتب المقدّسة التي تركها لنا آباء الكنيسة، وكتب حياة القدّيسين وتعاليمهم. يقول غريغوريوس الكبير: «حياة القدّيسين تعرّفنا ماذا علينا أن نفهم في الكتب المقدّسة. حياتهم تعلّمنا معنى ما تريد أن تقوله نصوص العهدين وبوسائل مختلفة». بالطبع، لا يمكن أبداً لهذه النصوص أن تحلّ مكان الكتب المقدّسة، ولكن تبقى دائماً في خدمة الكتاب المقدّس لنفهمه بشكل أفضل. وهي بمثابة أمثلة عمليّة تترجم كلمة الله إلى حياة معاشة. تذكر إحدى المخطوطات، مجهولة المؤلّف، من القرن الثاني عشر، نُقلت من إحدى الأديرة، كلمات نودّ أن نجعلها كلماتنا: «أيّها الإخوة، تعلّموا ما كتبه الآباء الأقدمون: اقرأوا الكتاب المقدّس لأنّه نور ولأنّه باب الحياة. لتكن قراءته مقبولة لديكم، وكلمته المقدّسة مستساغة عندكم. لأنّه منها يخرج نبع ماء يشفي القلب. هي الكلمة التي تليّن القساوة الداخليّة. تكشف الكتب المقدّسة دائماً للمؤمن الأسرار السماويّة. كلماته المقدّسة تنساب برقّة كالندى على العشب. في قراءتها والتأمّل فيها، يعرف كلّ منّا كيف يتقدّم نحو حياة السعادة، ويعرف ما هي طريق القدّيسين ونبع كلّ خير. في قراءتها نصبح

حكماء». (نصّ ورد في M. Masini: حول القراءة الربّانيّة» إستشهاد رقم ٤٦٧).

٣) لكي ندخل في نور كلمة الله ونعيشها، علينا أيضاً، كما ذكرنا سابقاً، أن نكون في موقف إيمان وطاعة (راجع الخروج ١٥: ٦؛ رومية ٤). الكتاب المقدّس - يقول غريغوريوس الكبير - هو «رسالة حبّ» كتبها الروح القدس. فقط الإيمان في كلمة الله يُمكّننا من أن نقبل «العالم الواسع المعاني» (الأب ريكور)، ويجعل المؤمن قادراً أن يصبح علامة حيّة معاشة في سبيل الحقيقة. الارتباط الحياتيّ الوثيق بين الكتاب المقدّس والحياة، يلتقي في جوّ من الانفتاح والطاعة الداخليّة لله. الكتاب المقدّس هو كتاب حياة المسيحيّ: لا يُقرأ ويُفهم فقط، وإنّما يُقبل ويمارس في الحياة. السماع يجب أن ينتهي في الطاعة، في الخضوع التامّ لكلمة الله. كلمة الله هي «روح وحياة» (يوحنّا ٦: ٦٣) تصيب القلب المتعطّش لتجسّدها. إنّها شيء يحوي في ذاته الحياة، بل هي بالأحرى شخص، هو يسوع المسيح.

٤) وأخيراً، نريد أن نقدّم الرمز والوجه المثاليّ للقراءة الربّانيّة: مريم العذراء. نتكلّم عن العذراء في نهاية مسيرة فهمنا لكلمة الله، ليس لأنّه موضوعٌ ثانويٌّ، بل لأنّنا نرغب أن ينطبع هذا المثل في أذهاننا، كعنصر مميز للقراءة ونقطة ارتكاز في المواجهة والاقتداء بكلمة الله. مريم هي سيّدة الصمت: «مكان كلّ لقاء، أو حضور: حضورنا لذواتنا، وحضورنا للآخرين، وحضورنا لله». (...) مريم هي عذراء الصمت والسماع وقبول كلمة الله في القلب: كانت «تحفظ كلّ هذه الأمور في قلبها» (لوقا ٢: ١٩، ٥١). كانت مريم تقرأ وتتأمّل ليس فقط الكتب المقدّسة، بل أيضاً كلمة يسوع والأحداث التي كانت تكتشفها في حياته. مريم هي صورة المصلّي الحقيقيّ في القراءة الربّانيّة، التي تعرف أن تحفظ بكلّ حبّ كلمة الله، وتتذكّرها لكي تحافظ على شعلة الإيمان مشتعلة: «تظهر مريم كامرأة

حكيمة تتذكّر وتتحقّق، وتفسّر وتواجه الكلمات بالأعمال (...) التي تتساءل عن معنى الكلمات الغامضة، التي عليها ينعكس ظلّ الصليب (راجع لوقا ٢: ٣٤ – ٣٥، ٤٨ – ٥٠) وتقبل صمت الله بصمتها المصلّي؛ يظهر في الصمت قلب مريم، **كقوس النصر**، يحفظ «ذكرى» تدخّلات الله في تاريخ شعب إسرائيل؛ **وكمكان** يجتمع فيه، بواسطة التفكير، الزمن القديم – آدم، إبراهيم، داود – ومنه يخرج الجديد – المسيح وكنيسته –؛ وكالأرض التي فيها تمّ زرع البذر الطيّب الذي سيحمل ثمرًا وفيراً؛ وكدرج المكتب، فيه تحفظ الكلمات التي فهمتها تدريجيّاً العذراء والكنيسة بوحي من الروح القدس». (...). إذا ما فكّرنا قليلاً بمريم المصلّية، نكتشف أنّها نموذج رائع لمن يمارس القراءة الربّانيّة. ليست مريم مجرّد إيقونة في الكنيسة، إنّما هي لكلّ مؤمن هيكل ومقام الروح القدس، وإمعان النظر في العذراء المصلّية يكشف لنا دعوتنا: نحن أيضاً، بالإيمان، نصبح مقام سرّ المسيح، ومدعوّين إلى الصلاة والتأمّل وإلى عيش الكلمة.

مقتطفات تاريخيّة حول القراءة الربّانيّة

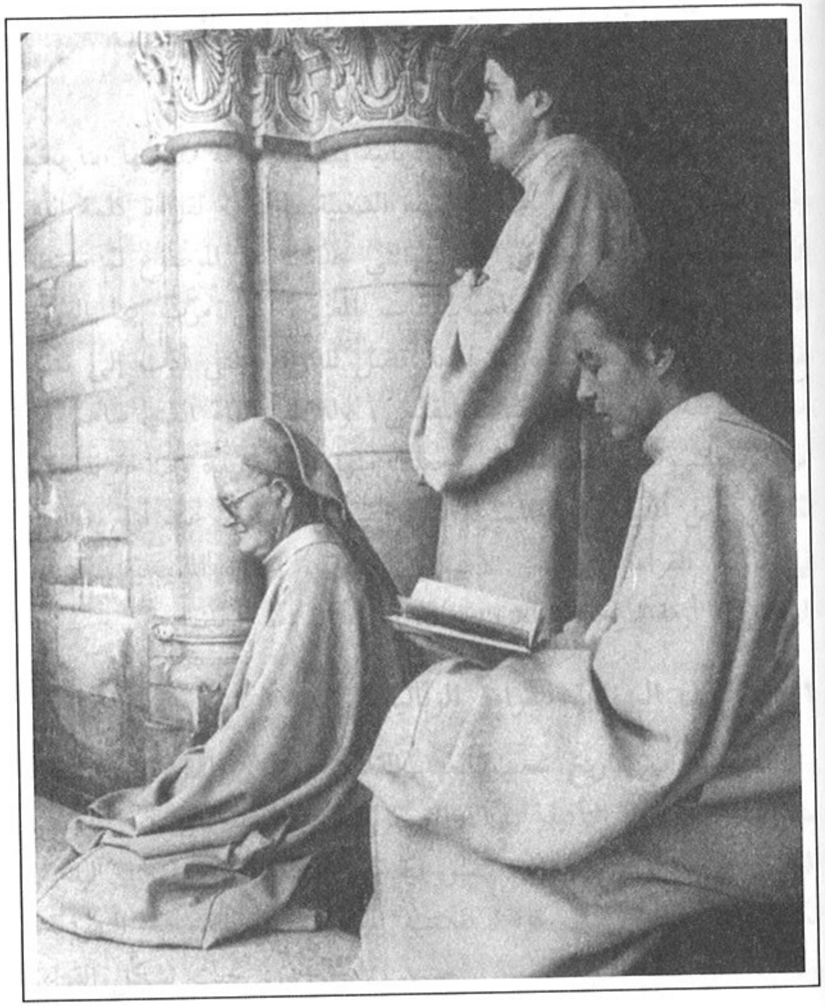

الفصل السابع
مقتطفات تاريخيّة حول القراءة الربّانيّة

إنّ التعرّف على مفهوم القراءة الربّانيّة يتطلّب معرفة مسيرتها التاريخيّة والمحطّات التي مرّت بها هذه الطريقة الشعبيّة والحياتيّة لقراءة كلمة الله. إنّ جميع المحاولات القديمة والجديدة التي تحدّثت عن الموضوع لم تستطع التغاضي عن المراحل الأساسيّة وذات المغزى التي مرّت بها القراءة الربّانيّة. تقدّم هذه المسيرة لنا فهماً أفضل للدوافع التي أدّت إلى نشوء هذه الطريقة في قراءة الكتاب المقدّس، وللإطار العامّ الذي ساهم في نموّها، وللشروط والمتطلّبات التي جعلت منها قراءة مفيدة وصالحة للكتاب المقدّس. من المفيد لمعرفة المسيرة التاريخيّة التوقّف قليلاً عند أربع مراحل في تاريخ القراءة الربّانيّة: الأصول اليهوديّة، الخبرة المسيحيّة، التطوّر الرهبانيّ، أزمة المرحلة الراهنة وإعادة إحياء القراءة الربّانيّة.

١. الأصول اليهوديّة للقراءة الربّانيّة

نعلن أنّه في تاريخ شعب العهد القديم، كانت كلمة الله والصلاة متلازمتين إلى حدّ التأكيد أنّ القراءة الربّانيّة قديمة قِدم الكتاب المقدّس. العلاقة بين الكلمة والجماعة الليتورجيّة تميّز التعبُّد اليهوديّ منذ البداية. يكفي أن نتذكّر وصف قراءة الكتب المقدّسة في الليتورجيّة اليهوديّة، والمذكور في سِفر النبيّ نحميا (راجع ٨: ١ – ١٢)، حيث تشكّل القراءة والشرح والصلاة اليهوديّة أسلوباً طبيعيّاً في العلاقة مع الله. «سِفر شريعة

موسى التي أمر بها الربّ إسرائيل» (نحميا ٨: ١). فكلمة الله الموجّهة للشعب المختار، شعب العهد، تشكّل حقيقة حيّة وحضوراً حقيقيّاً، حقيقة التوراة. فقد كان إعلان الشريعة (أي التوراة) سبباً لتجمّع الشعب وتكوين الشعب على جبل سيناء كجماعة موحّدة (خروج ١٩: ٢٤)؛ كان إعلان الشريعة زمن يشوع بن نون مناسبة لتجديد العهد مع الله (راجع ٢ ملوك ٢٣: ١ – ٢٥)؛ كما أنّ مركزيّة الشريعة والالتزام بها زمن النبيّ عزرا كانت تدفع الشعب لإعلان التزامه وأمانته لله (راجع نحميا ٨: ١ – ١٢؛ ١٠: ١ – ٤٠).

إنّ كلمة الله التي نُصغي إليها بإيمان ونُعلنها كلمة حياة، حاضرة في مختلف نصوص العهد القديم من خلال الأناشيد الليتورجيّة، حيث كانت تُقرأ شريعة موسى (التوراة) في سبيل التوبة ونحو إيمان الشعب والإنسان اليهوديّ. كان شعب الله يعيش من الشريعة كغذاء سماويّ، كخبز مغذٍّ ونبيذ طيّب، يغذّي ويحفظ المؤمنين (راجع تثنية الاشتراع ٨: ٣؛ ٣٢: ٤٦ – ٤٧؛ يشوع ٨: ٣٢ – ٣٥)؛ الأمثال ٩: ١ – ٥؛ يشوع بن سيراخ ٢٤: ١٨ – ١٩؛ الحكمة ١٦: ٢٦). كان الإصغاء إلى كلمة الله، والتي كانت تُقرأ بشكل علنيّ ومطوّل، مركز حياة وعبادة شعب العهد القديم، كما أنّ هذه الكلمة كانت تُشرح وتفسَّر، وتصل إلى قمّتها عندما يُعلن الشعب التزامه بها وعزمه على التمسّك بإله العهد.

إستمرّ هذا الإصغاء الليتورجيّ والجماعيّ طوال تاريخ الشعب اليهوديّ. كما كان هدف الصلوات في المجامع اليهوديّة بقراءاته المتنوّعة لكلمة الله، تجذير حياة الشعب في إطار العهد الموعود به والحاضر في الكتب المقدّسة، فيطبع هذا العهد في الأذهان والقلب والحياة: «لتكن هذه الكلمات التي أنا آمرك بها اليوم في قلبك، وردّدها على بنيك وكلّمهم بها، إذا جلست في بيتك وإذا مشيت في الطريق وإذا نمت وقمت. واعقدها علامة على يدك، ولتكن عصائب بين عينيك. واكتبها على دعائم أبواب بيتك» (تثنية الاشتراع ٦: ٦ – ٩).

إستمرّ تعليم الحاخامات في هذا الاتّجاه، وكان يُقدّم إعلان قراءة الكتاب المقدّس في المجامع كاستمرار للتقليد اليهوديّ الحيّ، المرتبط بالتفكير الجماعيّ. كما أنّهم كانوا يركّزون على العلاقة المستمرّة لكلّ مؤمن مع الكتاب المقدّس. وكان يَطلب من اليهوديّ أن يعكس محبّة الله له بمحبّة أخرى تُترجم في الحياة العمليّة وفي دراسة الكتاب المقدّس. إنّ قراءة الكتاب المقدّس والتأمّل بها والصلاة تقود الإنسان في علاقته مع الله، لأنّ الله حاضر في التوراة. لا يكفي إذاً العمل بحسب كلمة الله، بل يجب الالتزام بقراءتها ودراستها بتواضع عميق وبثبات، بعيداً عن الأمور الدنيويّة. كانت هذه القراءة تمارَس بأمانة أكبر في جماعة قمران حيث كان القانون يُلزم أعضاء هذه الجماعة بالقراءة المتواصلة للكتاب المقدّس وبتأمُّل الشريعة، حتّى إنّه كان يُطلب من كلّ عضو في الجماعة كتابة نسخة من التوراة. وفي سبيل العيش بأمانة لروح وحقيقة العهد، كان الكتاب المقدّس يُقرأ للتأمُّل نهاراً وليلاً. ومَنْ كان أميناً لهذه القاعدة استطاع أن يطبّق على ذاته ما يقوله سِفر المزامير: «مبارك الرجل الذي في شريعة الربّ هواه، وبشريعته يتمتم نهاراً وليلاً» (مزمور ١: ٢).

يمكننا أن نلخّص ما سبق فنقول إنّ اليهوديّ على مدى تاريخه فهِم قراءة الكتاب المقدّس في معناها الحياتيّ، أي لكي ينمّي الإيمان ويقوّيه في شعب العهد القديم.

٢. القراءة الربّانيّة في خبرة الكنيسة الأولى

تبنّت المسيحيّة الطريقة اليهوديّة الكلاسيكيّة في القراءة والشرح والتأمّل في الكتاب المقدّس، كما تُظهر العديد من نصوص العهد الجديد (٢ تيم ٣: ١٤ – ١٦؛ لوقا ٢٤: ١٣ – ٣٥؛ أعمال ٨: ٢٦ – ٤٠).

إستمرّت الكنيسة الأولى، على مثال المسيح نفسه في الصلاة مع كلمة الله، حتّى وإن كانت العلاقة بين العهدين تتمايز بين الاستمراريّة وعدم

الاستمراريّة. أمّا الجديد في الخبرة المسيحيّة في قراءة كلمة الله فنجده في حياة المسيح ذاته. فالمسيح يدخل في إطار مجمع الناصرة وكفرناحوم، إلاّ أنّه يعمِّق معنى وطريقة القراءة الربّانيّة، ليس فقط لأنه يطبّق على ذاته ما تقوله الكتب المقدّسة، بل لأنه يؤكّد أنّ كلمة الله كُتبت للوقت الحاضر (اليوم). عندما قرأ المسيح نصّ النبيّ أشعيا ٦١ في مجمع الناصرة، ذكر أنّه يتحقّق «اليوم». وقد فهم المستمعون أنّ كلمات أشعيا هذه التي كُتبت قبل قرون تتحقّق «اليوم» في إعلاة يسوع لها (لوقا ٤: ١٦). وبقي المستمعون مندهشين من هذه الكلمة «اليوم».

بعد العنصرة، أصبحت عقيدة وممارسة الرسل والكنيسة الأولى هي نفس عقيدة وممارسة المسيح. من هنا يبقى ما حدث مع تلميذَي عمواس نموذجاً مثاليّاً (لوقا ٢٤: ١٣ – ٣٥). كانت خبرة حياتهم في طاعتهم الكاملة للمعلّم، وفي حياة الإيمان في المسيح وفي رؤيتهم للمسيح كمتمِّم للكتب المقدّسة، كانت هذه الخبرة الفريدة والجديدة للتلميذين انعكاساً لحدث قيامة المسيح وإرسال الروح القدس، وهذه الأحداث الاستثنائيّة غيّرت حياة المسيحيّين الأوّلين. فما يميّز الأصول المسيحيّة هو هذه الخبرة الرسوليّة الجديدة والمرتكزة على «الخبر السارّ» عن يسوع، هذه البُشرى التي نشر الرسل معناها وفعّاليّتها، مُكتشفين من خلالها شخصيّة المسيح ذاته. يجب العودة إلى أوريجينوس وآباء «العصر الذهبيّ» للعثور على كلام عن القراءة الربّانيّة كطريقة واضحة المعالم لقراءة الكتاب المقدّس، حيث تظهر العلاقة مع الطريقة اليهوديّة، لكن بشكل متأصّل في البُشرى المسيحيّة. مارس جميع آباء الكنيسة، الشرقيّين والغربيّين، القراءة الربّانيّة، خاصّة في تفاسيرهم الرائعة لأسفار الكتاب المقدّسة المختلفة، حتّى إنّ هذه الشروحات انتشرت بسرعة بين أوساط المسيحيّين كطريقة مُثلى للصلاة ولاختبار الحياة مع الله.

إحدى المعطيات الأكيدة والهامّة في الكنيسة الأولى هي أوّليّة كلمة

الله في الليتورجيّا، حيث كانت تُقرأ أوّلاً، ثمّ يتمّ التعمّق في معانيها، بأسلوب التفسير الروحيّ. وأخيراً بتأوينها مستندة على شخصيّة السيّد المسيح. كشفت عناصر القراءة الربّانيّة هذه عن عنصر تفسيريّ هامّ وعن موقف أساسيّ للمؤمن لفهم كلمة الله وهو الانفتاح على عطيّة الروح القدس، المفسِّر الحقيقيّ للكتب المقدّسة.

٣. القراءة الربّانيّة في تصوّره الرهبانيّ

أشرنا إلى مساهمة آباء الكنيسة في مجال القراءة الربّانيّة. مثّل الآباء عصراً ذهبيّاً بشهادة إيمانهم، ولأنّهم وضعوا كلمة الله في مركز كتاباتهم وتعمّقهم في الفكر المسيحيّ، هكذا كانت قراءتهم للكتاب المقدّس «في الكنيسة». فقد كانوا «مفسِّرين لكلمة الله»، «شارحين للكتب المقدّسة». كان الكتاب المقدّس بالنسبة لهم ليس مجرّد كتاب مرجعيّ، بل كتاب الحياة، الحياة الأكيدة التي تقودهم إلى اكتشاف عالم الله ومشاركة الحياة معه. كان الآباء «يتنفّسون الكتاب المقدّس» الذي أصبح لهم الخبز والغذاء اليوميّ. كانوا يفسّرون الكتب المقدّسة في تعليمهم وفي كرازتهم، مُقترحين طريقة إعادة تفسير الحدث الخلاصيّ للجماعة المسيحيّة. كانت الوحدة بين الكتاب المقدّس واللاهوت والروحانيّة والعمل الرعويّ لدى آباء الكنيسة من الوضوح بحيث إنّ المعنى الحقيقيّ والعميق للكتب المقدّسة هو بالنسبة لهم قبول الروح القدس في النصّ الموحى.

كان مفهومهم الأساسيّ هو التالي: كلّ الكتاب المقدّس، بعهديه القديم والجديد، يكلّمنا عن المسيح ويخصّ كلّ إنسان. وقد سمّيت هذه الطريقة القراءة الروحيّة للكتب المقدّسة. هذه النظرة الشاملة للكتب المقدّسة بعهديه تؤدّي إلى المعاني الأربعة للكتب المقدّسة، المعاني التي تكلّمنا عنها سابقاً والتي تتوافق مع التفسير واللاهوت والحياة الروحيّة والالتزام الجماعيّ. كان القدّيس غريغوريوس الكبير أحد كبار ناشري طريقة القراءة الربّانيّة والذي أثّر في القرون الوسطى، مؤكّداً على العلاقة

بين كلمة الله وروح الله. لم تكن كلمة الله بالنسبة لغريغوريوس قاعدة أدبيّة فقط للحياة البشريّة، بل كانت بُعداً نبويّاً على الكنيسة جمعاء وعلى كلّ مؤمن أن يعيشه ليحقّق في حياته سرّ محبّة المسيح. فالكلمة والروح يبنيان الجماعة الكنسيّة في مختلف مراحل تاريخ الخلاص.

بعد الفترة الخصبة لآباء الكنيسة في تاريخ القراءة الربّانيّة، نجد ظاهرتين مميّزتين: ابتعد الشعب المسيحيّ عن ممارسة القراءة الربّانيّة وتعرّف على تاريخ الكتاب المقدّس عن طريق الرسومات واللوحات الكنسيّة، حيث رُوِيَ الكتاب المقدّس «للفقراء»، بينما بقيت القراءة الربّانيّة في حدود الأديرة الرهبانيّة. فقد مارس القراءة الربّانيّة رهبان الصحراء، خاصّة في الشرق، بتفانٍ في القراءة والصلاة والتأمُّل في الكتب المقدّسة، ليس فقط في أوقات قراءة الكتاب المقدّس الجماعيّة، بل بحثاً عن القيمة النسكيّة والتوبة والتجديد الروحيّ حتّى في العمل اليوميّ الذي كانوا يمارسونه في جوٍّ من التأمُّل وتكرار كلمة الله.

وهكذا أصبحت القراءة الربّانيّة من اختصاص الأديرة الرهبانيّة، حيث عيّنت الأوقات المخصّصة لذلك، وطريقتها وأسلوبها. وقد أضيفت قراءات من آباء الكنيسة والمعلّمين الروحيّين على قراءات الكتاب المقدّس. وقد ازدهرت هذه الطريقة عند الآباء السسترسيان في القرن الثاني عشر حيث طُوّرت طريقة جديدة توازن بين القراءة الربّانيّة والليتورجيّا والعمل اليدويّ، أي الحياة اليوميّة. وقد تربّت أجيال من الرهبان التأمّليّين والقدّيسين على هذه الطريقة ، وكانت هذه الطريقة مثال حياة العديد من المدارس الرهبانيّة والروحيّة التي رأت النور في تلك الفترة.

٤. أزمة القراءة الربّانيّة في العصر الحديث وإعادة اكتشافها

بدأت الأزمة أو التراجع في «القراءة المصلاّة» للكتب المقدّسة في حياة المؤمنين في الكنيسة بين القرنين الثاني عشر والثالث عشر، عندما تمّ

الانتقال من القراءة الربّانيّة إلى المجادلات اللاهوتيّة، ومن ثمّ إلى القراءة الروحيّة التي تميّز العصور الحديثة. تمّ استبدال أوّليّة كلمة الله بالنظرة الروحيّة الذاتيّة، كما هو الحال في العبادات المعاصرة. يرتبط هذا الفصل بين الكتاب المقدّس والليتورجيّة والحياة والالتزام اليوميّ بالتفكّك التدريجيّ للنظرة إلى الكنيسة كشركة وتفضيل النظر إليها كمؤسّسة هرميّة، وهذا ما حدث بالتدريج على مدى العصور ابتداءً من الإصلاح الغريغوريّ للكنيسة، مع ما رافق ذلك من تقدّم للقانون الكنسيّ وللطريقة المدرسيّة في البحث عن الحكمة في كلمة الله.

كما أنّ التفسير الكتابيّ للمعنى الروحيّ في القرون الوسطى، والمرتبط بالرؤية الشاملة والمتناغمة لمعاني الكتاب المقدّس، تمّ استبداله في العصور الحديثة بطريقة النقد التاريخيّ للنصوص الكتابيّة، والتي انحصرت منذ عصر النهضة في البحث عن المعنى الحرفيّ والتاريخيّ للنصوص، أو في أفضل الأحوال في البحث عن «المعنى المناسب» الذي شوّه المعنى الحقيقيّ لكلمة الله، وحال دون الوصول إلى رسالة الروح. وهكذا نشهد انكسار الوحدة بين اللاهوت والقداسة، كما يؤكّد اللاهوتيّ الألمانيّ فون بلتسار: «بدل هذا التناغم الذي شهده عصر الآباء والقرون الوسطى بين المعرفة والحياة، حلّ الانفصال التدريجيّ بين مختلف جوانب الحياة المسيحيّة. فالإرث القديم في وحدة التفسير الكتابيّ مع اللاهوت والحياة الروحيّة والحياة الراعويّة في كلٍّ متكامل، انحلّ لصالح لاهوت المرحلة المدرسيّة والتفسير الكتابيّ المستقلّ في العصور الحديثة. وهكذا حلّت العقلانيّة والنظرة الذاتيّة محلّ القراءة والتأمُّل في كلمة الله الخاصّة بالقراءة الربّانيّة».

إلاّ أنّنا اليوم نشهد عودة التناغم من جديد بين الكتاب المقدّس والروحانيّة والحياة، وتشكّل هذه الطريقة أحد المتطلّبات الحيويّة والهامّة للحياة المسيحيّة، حيث تجدّد الاهتمام بالقراءة الربّانيّة، وهي عودة

محمودة ومفيدة. فعلى التفسير الكتابيّ أن يُعطي اليوم تفسيراً لاهوتيّاً وروحيّاً للنصوص، كما كان الحال في التقليد الكنسيّ، سواءٌ لدى آباء الكنيسة أو في الليتورجيّا أو لدى المعلّمين الروحيّين. وهذا يعني طريقة قراءة الكتاب المقدّس بكلّ الغنى الذي حمله تقليد الكنيسة. وهكذا يغتني النصّ بالخبرة اليهوديّة في العهد القديم وفي الحياة المسيحيّة للكنيسة الأولى، وأخيراً بالفكر والخبرة الروحيّة لكلّ تقليد الكنيسة، فتتعمّق معرفة الكتب المقدّسة وتساعدنا على فهم وعيش الكتب المقدّسة بطريقة أشمل وأعمق.

الفهرس

مقدّمة ٥

الفصل الأوّل

أمور عامّة حول القراءة الربّانيّة ٧

الفصل الثاني

الأبعاد الروحيّة للقراءة الربّانيّة ٢٧

الفصل الثالث

منهجيّة ومراحل القراءة الربّانيّة ٥١

الفصل الرابع

الثمار والعطايا الروحيّة للقراءة الربّانيّة ٧٣

مراحل مسيرة القراءة الربّانيّة ٨٥

الفصل الخامس

نصائح مفيدة لممارسة القراءة الربّانيّة ٨٩

الفصل السادس

أمثلة عمليّة على القراءة الربّانيّة ٩٧

الفصل السابع

مقتطفات تاريخيّة حول القراءة الربّانيّة ١١٩

ظهر من سلسلة «صفحات روحيّة»

١ – م. يوسف الكلاّس: على دروب الإنجيل
٢ – ماري – تريز دو ماليسي: صلاة على مدى ١٥ يومًا...
٣ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ: قصص تأمّليّة (١)
٤ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ: قصص تأمّليّة (٢)
٥ – أ. إميل الحاجّ البولسيّ: قصص تأمّليّة (٣)
٦ – أ. غَرديّ الدومنيكيّ/ أ. باسيليوس بريدي: مقام الروح القدس في الحياة المسيحيّة
٧ – أ. جوزيف شريفرز/ جورج الريّس: بذل الذات
٨ – أ. باسيليوس بريدي البولسيّ: عظات في التطويبات ومريم العذراء
٩ – م. كيرلّس بسترس: تأمّلات في إنجيل ربّنا يسوع المسيح
١٠ – هنري كافاريل/ جورج عازار: الصلاة لقاء مع الله
١١ – أ. بيتر فان بريمن/ أ. وفيق نصري اليسوعيّ: كالخبز الذي كُسِر
١٢ – أندريه لوفيه/ أ. الياس زحلاوي: هروبي الأخير مع يسوع المسيح
١٣ – عادل تيودور خوري: مع يسوع المسيح في لقاءاته
١٤ – رينهارد لتمان/ عادل تيودور خوري: من حصاد المطالعة
١٥ – الخوري بولس الفغالي: إرفعوا الكِسَر
١٦ – كرت رومل/ حنّا شوملي: أبانا الذي في السماوات
١٧ – م. يوسف الكلاّس: من وحي الإنجيل
١٨ – م. سليم الصائغ: الصلاة بالروح والحقّ (١)
١٩ – م. سليم الصائغ: الصلاة بالروح والحقّ (٢)
٢٠ – هنري كافاريل/ أ. أنطوان نصر: «لا تخفْ أن تأخذ مريم زوجةً لك»
٢١ – م. سليم الصائغ: يسوع خبز الحياة (١)
٢٢ – م. سليم الصائغ: يسوع خبز الحياة (٢)
٢٣ – الكردينال مارتيني/ أ. مارون اللحّام: الله يكفيني

أنجزت المطبعة البولسيّة، جونيه – لبنان
طبع هذا الكتاب في شهر آب
سنة ٢٠٠٥

«صفحات روحيّة» هي سلسلة جديدة، طالما انتظرها القرّاء، تُطلقها المكتبة البولسيّة، لتسدّ ثغرة في المكتبةِ الروحيّة العربيّة. وهي ليست نظريّات روحيّة، بل لمحات تُبرز خطًّا روحيًّا سديدًا.

طالما كانت الخبرةُ الروحيّة منارةً على درب مَن يسعى للقاء الله في خبرة شخصيّة وتعبير بسيط، ينطلق من قلب إنسان مؤمن إلى قلب الله المحبّ. كم من صفحاتٍ كتبَها شهودُ الحياة الروحيّة مِن قَبلنا: ثبتتْ عبر التاريخ، ووضعت مناهج للحياة لا يزال يسير بموجبها آلافٌ وآلافٌ من المؤمنين الملتزمين.

حَسبُنا أن تحملَ هذه «الصفحات الروحيّة» بعضًا منّا على اكتشافٍ لله أعمق، وازديادٍ في حُبِّهِ أشمل، والتزامٍ بوصاياه أكمل.

منشورات المكتبة البولسيّة

جونيه – شارع القدّيس بولس – ص.ب. ١٢٥
هاتف: ٩١١٥٦١ – ٠٩/٩٣٣٠٥٢ – فاكس: ٠٩/٦٤٣٨٨٦
بيروت – شارع لبنان – هاتف: ٠١/٤٤٨٨٠٦ – تلفاكس: ٠١/٤٤٤٩٧٣
زحْلة – الحمراء بلازا – تلفاكس: ٠٨/٨١٢٨٠٧